شوقي أبو خليل

عوامل النصر والهزيمة

عبر تاريخنا الإسلامي



دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

عوامل النصر والهزيمة

منقحة

عبر تاريخنا الإسلامي

شوقي أبو خليل

عوامل النصر والهزيمة

من عبر تاريخنا الإسلامي

دار الفكر
دمشق - سورية



تصوير ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م
الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م
ط ١ ١٩٧٩ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص. ب (٩٦٢) - برقياً : فكر
س . ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

إنّ أُمّـةً تتزاحم أبناؤها من أجل الشّهادة
لا تعرف الهزيمة

سيف الله
خالد بن الوليد
رضي الله عنه

تصدير

☆ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[الصف ١٠ ـ ١٣]

الحمد لله القائل : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦] ، وصلّى الله على إمام المجاهدين ، الّذي جعل : « الإيمانَ بالله ، والجهادَ في سبيله »[1] أفضل الأعمال ، وبعد ..

انتصارات أُمّتنا عبر تاريخها الطّويل ، منذ عرفت ذاتيّتها ، وجمّعت قواها ، واهتدت إلى سبيلها القويم الّذي ارتضاه الله لها ، كانت ضمن أُسس ومنهج محدد ، لا عشوائيّة ، ولا ارتجال في تحقيقها .

انتصارات أُمّتنا ليست نتيجة طفرة قوة ، انتَزِعَ صَمّامُ أَمانِها ، فكانت قوة دافقة كاسحة ، ثم خبت شيئاً فشيئاً حتّى تلاشت .

إنّ انتصاراتنا عبر التاريخ ، كانت وما زالت ضمن أُسس محدّدة ، إن تحقق

(١) متفق عليه ، راجع البخاري ١٠٥/٥ ، ومسلم ٨٤

الالتصاق بها تحقق النَّصر ، وإن ابتعدت أمَّتنا عنها ، أو تسرَّب خلل إلى تطبيقها وإلى أُسسها كانت الهزيمة .

وهذا لا يعني أن الله لم يحقق بعض الانتصارات بمعجزة ، بخرق العوائد ، ولكنها ليست قاعدة تتبع .. إنَّها كانت في بدء نشوء هذه الأُمَّة قبل استكمال قواها الماديَّة ، إنَّها كانت توطيداً للنواة الطَّيِّبة الَّتي لو هلكت ، لما عُبِدَ الله بحق بعدها .

في غزوة بدر الكبرى في السَّنة الثانية للهجرة ، كان النَّصر بمعجزة ، لأَنَّ الَّذين خرجوا إلى بدر ما خرجوا للجهاد ، لقد خرجوا لحرب اقتصادية ضد الوثنيَّة المتمثِّلة في قريش ، لقد خرجوا لملاقاة عير لقريش ، ولما فرَّت القافلة وفُرِضَ على المسلمين القتال ، كانت المعجزة : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ [الأنفال : ٩] ، ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ، إِذْ تَقُولُ لِلمُؤمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُم أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الملائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُم رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الملائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ ، [آل عمران : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥] .

في بدر .. ما كان الموقف ليحتمل انكساراً .. لقد ناشد النَّبيُّ ﷺ ربَّه قبيل المعركة قائلاً : « **اللَّهم إن تَهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد** »[1] ... فكانت المعجزة ، لتعلم الفئة المؤمنة أنَّ الله معها حقاً وصدقاً ، وليكوِّن النَّصر في بدر - أوَّل لقاء مسلَّح مع الكفر - روحاً معنويَّة دافعة لتثبيت أركان الأُمَّة المسلمة .

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ : ٢ ، ص : ١٩٦ . والسيرة الحلبية ، جـ : ٢ ، ص : ١٧٣

ولكي تعي الفئة المؤمنة نفسها ، أنَّ للنصر أسباباً ، وليست المعجزة دائمة الوقوع ، وخاصَّة عند تسرُّب خلل إلى استراتيجيَّة الإسلام الَّتي سنَّها الله .

لكي يعي المؤمنون ذلك كانت أُحُد ، هزيمة بعد نصر ، لقد سُلِبَ النَّصر من بين أيدي المسلمين بعد أن شهدوا النَّصر بأُمِّ أعينهم ، لتعلم هذه الأُمَّة أَنَّ تأييد الله لها بقدر اتباعها لأوامره ، وبقدر تطبيقها لمنهجه : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ الْمُبِينُ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فِي ٱلأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُم ٱلَّذِي ارتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُون بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ** ﴾ ، [النُّور : ٥٤ ، ٥٥] .

فليس النَّصر في الانتساب إلى الإسلام ، إنما النَّصر في تطبيق الإسلام .

وليس النَّصر مع ادِّعاء الإيمان ، بل النَّصر مع التزام المؤمنين بما تمليه عليهم كلمة إيمان ، وبما تحتويه كلمة إيمان من معان[(١)] .

فأُحُد هزيمة ورسول الله بين جند الإسلام ، لتعلم الفئة المؤمنة حتى قيام السَّاعة ، أن لا نصر مع خرق قواعد النصر .

وفي حُنَين .. بعد أن دخل في نفوس المجاهدين العُجب بكثرتهم ، وظهر ذلك بقولهم : « **لن نُغْلَب اليوم عن قلة** » ، أراهم الله عز وجل أن هذه الكثرة لا تغني عنهم من الله شيئاً ، فهُزِموا ، وتبيَّن لهم أنَّ النَّصر ليس بكثرة العدد ، وأكرم الله

(١) لا توجد في القرآن الكريم سورة باسم « الهزائم » ، ولا سورة خسارة الأرض والأوطان ، ودخول العدو في قلب البلاد ، ولكن توجد سورة « النَّصر » ، وسورة « الأَنفال » ، وسورة الأنفال اسمها يدل عليها ، إنَّها سورة القادة الذين لا يعرفون من المعارك الانهزام وتولية الأدبار ، ولكن يعرفون من المعارك النَّصر والغنائم ، لا يعرفون هزيمة ولا فشلاً ولا إخفاقاً ، بل يعرفون الأَنفال الَّتي تتبع الفوز .

رسولهِ فثبته ، وحقَّق له النَّصر ، فكانت حفنـة تراب أعظم من جيش ، حين أراد لها الله أن تكون كذلك ، فقد كفى المسلمين درس أُحُد .

إنَّ تصفُّح التَّـاريخ تصفُّح الـدَّارس المتفحِّص ، الفـاهِم الـواعي ، يـوضـح أنَّ للنصر أسبـابـه ، وللهزيمـة أسبـابهـا ، وأنَّ للنصر عوامل تحقِّقـه ، وللهزيمـة عوامل تسببها ، للنصر نواميس ، وللهزيمة أسباب .

النَّصر يتحقَّق بأسباب لا تتبدَّل ولا تتغيَّر في عرف الإسلام .

والانهزام يكون بأسباب مختلفة ، فكلما طرأ سبب يُبْعِدُ عن الأسباب الثَّابتة للنَّصر ، كانت الهزيمة . ففي اليرموك ، وفي القادسيَّة ، وفي نهاوند ، وفي الزَّلاَّقة ، وفي حِطِّين ، وفي عين جالوت .. كان النصر ضمن الأُسس الَّتي اختطَّها الإسلام .

وفي أُحُـد ، وفي حُنَين ، وفي الجِسر ، وفي بـواتييـه ، وفي العِقَـاب .. كان الانهزام بسبب خلل طرأ على أسباب النَّصر الَّتي ضمنها الإسلام .



وفتش كثيرون عن أَسباب النَّصر .. فمن قائل إنَّها الصحراء ، صقلت أجسـام العرب وجعلتهم أشداء البنيـة ، فـانتصروا على أبنـاء التَّرف والنَّعيم في فـارس والروم .

ومن قـائل إنَّهـا أُمَّـة وحَّـدت قـواهـا وهي في منتهى الرَّاحـة ، فتغلَّبت على دولتين أتعبتهما كثرة الحروب ، وأنهكهما طول الاقتتال .

وقالوا : إنَّه الجمل ، ذلك السِّلاح الجديد الـذي دخل المعركـة ، فـأمَّن ربـط الجبهات بمركز الخلافة ، وسهَّل وصول الإمدادات .

ولو تجرَّد الباحث عن أَسباب انتصارات هذه الأُمَّة ، وتنـاول الموضوع بعيـداً عن الأَغراض الَّتي تفرَّغ بعضهم لهـا ، ومن أهمهـا الـدَّس والتَّشـويـه ، لـو ترك

أصحاب الأغراض أغراضهم الرخيصة ، لوجدوا الجواب سهلاً واضحاً ، لا صعوبة في التفتيش عنه ، ولا غموض في ملامحه مطلقاً .

إن النَّهج الإسلامي الَّذي رسمه كُلٌّ من القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة ، ربَّى المسلم تربية جعلته لا يتشبث بروحه ، بل يجود بها لأنَّها غدت أمانة عنده ، بعد أن باعها لمن اشتراها منه بأجر معلوم :

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ؛ [التوبة : ١١١] .

لذلك كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول لأعدائه : جئتكم بقوم يحبُّون الموت كما تحبُّون الحياة ، إنهم أحبُّوا الموت في سبيل الله لعظيم ثواب الشَّهيد ، مؤمنين بقوله ﷺ : « والَّذي نفس محمَّد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله ، فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل »(١) .

وبهذا المعنى حدَّد النَّبيُّ ﷺ أيضاً داء المستقبل فقال : « يوشك أن تداعى عليكم الأُمم من كل أُفق ، كما تداعى الأَكلة على قصعتها ، قالوا : يا رسول الله أمِنْ قِلَّة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السَّيل ، ينزع المهابة من قلوب عدوِّكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت »(٢) .

فإذا ما أحبت الأُمَّة الحياة ، وكرهت الموت ، هانت الكرامة ، وكانت الهزيمة ، وعلا أسوارها أعداؤها .

---

(١) متَّفق عليه .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٢٧٨/٥

روح المسلم في عرف الإسلام ليست ملكه ، إنّها أمانة عنده ، وهو في كل لحظة على استعداد لبذلها لمن اشتراها .. وهذا ما يفسّر لنا الكثير من المواقف المدهشة ، والمواقف العظيمة الّتي سجلها المسلمون في فتوحاتهم ، والّتي استقبلوا بها الموت بشوق وابتسامة ، كيف لا وهو ـ أي الموت ـ تحفة المؤمن ؟ فالشّهادة في عرف المسلم الحق ، فوز بمنزلة عالية عظيمة لا تعلوها منزلة .

وحب الشّهادة ، نتيجة لتربية قوية تجعل حبَّ الله في الرُّوح قبل كل حب : ﴿ **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ ، [التوبة : ٢٤] .

﴿ **فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ أي : انتظروا عذاب الله وغضبه .

ونحن في القسم الأكبر من هذا الكتاب ، في صدد الجهاد العسكري ، وما يحقق النصر ، وما يسبب الهزيمة . وإن كانت الجوانب الإسلاميّة الأُخرى لها علاقة وثيقة ومباشرة بأسس التربية عند الفرد المسلم ..

إن الجهاد العسكري في الإسلام هو الجهاد الأصغر ، والمعركة الكبرى في الإسلام جهاد النَّفس والهوى ، فمن انتصر على نفسه وهواه حقَّق النَّصر الأكبر ، وهانت عليه نفسه في معركة الجهاد الأَصغر .

ومن باع نفسه لله ، لا يقاتل إلاّ لله ، إلا لإعلاء كلمته في الأرض : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » .

فلا قتال لغنيمة ، وعندما تكون الغنيمة هي الهدف ، تكون الهزيمة .

ولا قتال في قاموس الإسلام مع العجب بقوة بشرية : ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، وَلكِنَّ اللهَ رَمَى** ﴾ ، [الأنفال : ١٧] .

وعندما ينسى المجاهدون ربَّهم ، أو يغفلون عنه ، تكون النتيجة انهزاماً .

ولا قتال في منهج الإسلام مع فرقة الكلمة ، وتشتُّت الإمكانات ، وانقسام الصَّف : ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** ﴾ ، [الصَّف : ٤] . ومُقَاتِلون يرافقهم تنازع وتفرُّق كلمة ، هم منهزمون .

ولا قتال في منهج الإسلام مع عصبيَّة ، أو قبليَّة ، أو عنصريَّة ، أو شعوبيَّة ، فكل ذلك من سمات الجاهليَّة : ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ [الفتح : ٢٦] ، فقتال من أجل عصبية قبليَّة أو عنصرية جاهلية ، تكون النتائج : هزيمة .

ولا قتال في الإسلام مع ارتجال أو تواكل ، أو من غير إتيان الأسباب : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] . وقتال بلا أسباب ، قتال بلا إعْدَاد ، قتال ارتجال وتواكل ، تكون النتائج : « منهزمون » .

ولا قتال في الإسلام مع تفكير جندي واحد بالهزيمة أو بالفرار : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الأنفال : ١٥/١٦] .

وقتال بلا مؤمنين عقيدتهم : ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**[1] ، **وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ**

---

(١) إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

بِأَيْدِينَا ، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥١/٥٢] ، قتال تكون نتائجه هزائم .

ولا قتال ناجح ، وفي الجيش « منافقون » : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : ٤] ، فقتال مع بطانة سوء ، تكون النتائج : « منهزمون » .

ولا قتال في الإسلام بطراً ومفاخرةً وزهواً أمام النَّاس : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ واللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال : ٤٧] ، بل قتال في سبيل الله وحده : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال : ٨] ، وقتال بطر ورئاء الناس تكون النتائج انهزاماً .

في الإسلام : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ، لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [الأحزاب : ٢٣/٢٤] .

مقومات النَّصر الَّتي قررها الإسلام في منهجه ، حملها الفاتحون المسلمون ، وعرفها العالم في خُلُقِ الفاتح المسلم لاتتبدَّل ولا تتغيَّر .

بعث المقوقس عظيم مصر رُسُلاً إلى جيش عمرو بن العاص ، فأبقاهم عمرو عنده يومين وليلتين ، اطلعوا خلالها على حياة جند ربّاهم الإسلام ، وهيَّأهم لفتح أرض الكنانة ، ولما عادت الرُّسل إلى المقوقس سألهم : كيف رأيتم ؟ قالوا :

« رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدُّنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب .

وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصّلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم »[1] .

فقال عند ذلك المقوقس : « **والّذي يحلف به ، لو أنّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ! »** .

وبعد معركة « نهاوند » وانتصار المسلمين الرائع فيها بقيادة النُّعمان بن مقرِّن المزني ، أرسل يزدجرد كسرى الفرس رسولاً يحمل هدايا إلى ملك الصّين ، يطلب منه العون والنجدة ، قال ملك الصّين لرسول كسرى : قد عرفت أنَّ حقّاً على الملوك إنجاد الملوك على مَنْ غلبَهم ، فَصِفْ لي صِفَةَ هؤلاء القوم الّذين أخرجوكم من بلادكم ، فإني أراك تذكر قِلَّةً منهم وكثرة منكم ، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الّذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلاَّ بخيرٍ عندهم وشرٍّ فيكم .

ـ فقال رسول يزدجرد : سلني عما أحببتَ .

ـ ملك الصّين : أيوفون بالعهد ؟

ـ رسول يزدجرد : نعم .

ـ ملك الصّين : وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟

ـ رسول يزدجرد : يدعوننا إلى واحدة من ثلاث : إمَّا دينهم ، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة ، أو المنابذة .

ـ ملك الصّين : فكيف طاعتهم أُمراءهم ؟

ـ رسول يزدجرد : أَطوعُ قوم لمرشدهم .

---

(1) النجوم الزاهرة ، جـ : ١ ، ص : ١١/١٠

ـ ملك الصِّين : فما يُحلِّون وما يُحرِّمون ؟ فأخبره رسول يزدجرد .

ـ ملك الصِّين : **أيحرِّمون ما حُلِّل لهم ، أو يحلِّون ما حرِّم عليهم ؟**

ـ رسول يزدجرد : **لا** .

ـ ملك الصِّين : **فإنَّ هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلّوا حرامهم ، ويحرّموا حلالهم .**

ثم قال : أخبرني عن لباسهم ، فأخبره ، وعن مطايـاهم ، فقال رسول يزدجرد : الخيل العِراب(١) ، ووصَفَها .

ملك الصِّين : نعمت الحصون هذه . ثم وصف رسول يزدجرد لملك الصِّين الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها ، فقال ملك الصِّين : هذه صفة دوابِّ طوال الأعناق .

ثم كتب ملك الصِّين كتاباً إلى يزدجرد جاء فيه : **إنّه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوّله بمرو وآخره بالصِّين الجهالة بما يحق عليَّ ، ولكن هؤلاء القوم الّذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها ، ولو خلي سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف ، فسالمهم وارضَ منهم بالمساكنة ، ولا تهجهم ما لم يهيجوك(٢) .**

من هاتين الحادثتين تتجلى أهمُّ أسباب انتصارات المسلمين ، وفي حديث ملك الصِّين تتضح أيضاً متى تبدأ الانهزامات : « فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ، ويحرِّموا حلالهم » .

☆ ☆ ☆

(١) الخيل العراب : الكرائم السالمة من الهجنة .

(٢) تاريخ الطبري ، جـ : ٤ ، ص : ١٧٣/١٧٢

مقومات النّصر

ويمكننا أَن نقول ، إنّ أبرز مقوِّمات النَّصر هي :

١ ـ **الإعداد قبل المعركة :** ويشمل إعداد الرِّجال روحيّاً وجسدياً ، وإعداد السِّلاح .

لقد قدّس الإسلام أَرض التَّدريب ، فجعل ميدان التَّدريب في المدينة المنوَّرة أرضاً من الجنَّة ، يدخل إليها المتدرِّبون حفاة ، وجعلَ الإسلامُ المؤمنين لا يعرفون ضياع الوقت ، فإما عمل أَو عبادة أو تدرُّب على الرَّمي ، أو ركوب الخيل ، وهذه هي الأسلحة المعروفة في حينه .

ويبدأ الانهزام العسكري بالانهزام الرُّوحي والنَّفسي قبل المعركة . يبدأ بضعف الإيمان ، وبالتالي الانهزام أمام الشَّهوات . ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يقول بعد عودته من غزواته إلى المدينة المنوَّرة : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس والهوى » .

☆ ☆ ☆

٢ ـ **معرفة قدرة العدو وإمكاناته :** لقد أبقى النَّبيُّ ﷺ العبَّاس في مكَّة عيناً له على قريش وتحركاتها . كما استطاع ﷺ معرفة عدد جيش قريش في بدر من معرفة عدد ذبائحها اليوميَّة .

وقبيل معركة القادسيَّة دخل « طُلَيْحة الأَسدي » جيش الفرس ، وبات فيه يجوسه ويتوسم مافيه ، ولما عاد طليحة أخبر سعدَ بن أبي وقاص عن أَحوال الفرس وأَنهم مئة وعشرون أَلفاً ، وأَتباعهم مثلهم خدام لهم .

وأُمَّةٌ تقاتل عدوَّها دون معرفة قدراته واستعداداته ، أُمَّةٌ أقرب إلى الهزيمة منها إلى النَّصر .

☆ ☆ ☆

٣ ـ التَّوجيه المعنوي : تُعطي دول العالم اليوم ٧٥٪ للمعنويات ، و ٢٥٪ فقط للأُمور الماديَّة في جيوشها . لذلك ركَّز الإسلام على الرُّوح المعنويَّة من قبل . وجعل أتباعه يقولون لقائدهم ﷺ : « والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك » ..

تربية الإسلام الروحيَّة ، هي التي جعلت الرُّوح المعنويَّة عند المجاهدين في الأَوْج :

عمرو بن الجموح : صحابي أعرج عرجاً شديداً ، حارب في أُحُد ـ وهو معذور إن لم يجاهد ـ وهو يقول : سأدخل الجنَّة بعرجتي هذه .

سعد بن الربيع : أرسل إليه النَّبيُّ ﷺ بعد أُحُد مَنْ يراه أفي الأَحياء هو أمْ في الأَموات ، فقال سعد : أنا في الأموات ، أبلغ رسولَ الله عنِّي السَّلام ، وقل له : إنَّ سعدَ بنَ الربيع يقول لك : جزاك الله خير ما جزى نبيّاً عن أُمَّته ، وأبلغ عني قومَكَ السَّلام ، وقل لهم : إنَّ سعد بن الربيع يقول لكم : إنَّه لا عُذْر لكم عند الله إن خَلِصَ إلى نبيِّكم ﷺ وفيكم عَيْنٌ تطرف .

البراء بن مالك بن النضر الأنصاري : يوم اليمامة عندما اشتدَّ القتال في الحديقة التي كان فيها مسيلمة الكذَّاب ، قال البراء : يا معشر المسلمين ألقوني عليهم ، فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار المحيط بالحديقة فاقتحمه وقاتل على الباب حتى فتحه للمسلمين ، فجرح يومها بضعاً وثمانين جرحاً[١] .

---

(١) استشهد رحمه الله عند فتح مدينة تستر في إيران ، تقدم نفر من المسلمين منه وقالوا : يا براء أقسم على ربِّك ليهزمنهم لنا ! فقال البراء : اللّهم اهزمهم لنا واستشهدني ، فانهزم الفرس واستشهد البراء .

في اليرموك .. كم منادٍ صاح قائلاً : « من يبايع على الموت ؟! » .

في نهاوند .. كان دعاء **النعمان بن مقرّن المزني** قائد المسلمين : « اللهم اعزز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أوّل شهيد اليوم ، اللهم إنّي أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عزّ الإسلام ، أمّنوا يرحمكم الله » .

خالد بن الوليد رضي الله عنه سمع قبيل بدء معركة اليرموك جندياً يقول : « ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين ! » . فقال خالد : « ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنّما تكثر الجنود بالنّصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددت أنّ الأشقر (يعني فرسه) براء .. وأنّهم أُضعفوا العدد » .

إن توجيه الإسلام وتربيته جعلت خالداً ينطق بهذا ، نطق المتيقّن مما يقول ، ففي تربية الإسلام أصبح خالد لا يعادل ربع مليون من أعدائه ، لا .. بل فرَسُه الأشقر يعادل ربع مليون من أعدائه ، فما قيمة خالد إذن ؟ هل نقول : الملايين ؟! لا غرابة فشعب تربى على هدي الإسلام يكون بمثل هذه المعنويّات !.

لما سمع **عبادة بن الصامت** كلام المقوقس قبيل فتح مصر ، قال عبادة مجيباً : « قد سمعت مقالتك ، وإن فين خلّفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً مني ، وأفظع منظراً ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ماأهاب مئة رجل من عدوي لواستقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه .. » .

ثم قال عبادة رضي الله عنه رادّاً على تهديدات المقوقس : « يا هذا ، لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك ، أمّا ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنّا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، إن كان ماقلتم حقّاً ، فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لأنّ ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه إن قُتلنا عن آخرنا كان أمكن

لنا من رضوانه وجنّته ، وما من شيء أقرّ لأعيننا ، ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنّا منكم حينئذٍ على إحدى الحسنَيَيْن ، إمّا أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنّها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإنّ الله عزّ وجلّ قال لنا في كتابه : ﴿ **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربّه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، وألاّ يرده إلى بلده ، ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا همٌّ فيما خلّفه وقد استودع كل واحد منا ربّه أهله وولده ، وإنّما همنا ماأمامنا ... » .

هذه صور من الرّوح المعنويّة عند المسلمين ، وهي روح في القمة لأنّ منبعها الإسلام والإيمان . وأُمّة معنويات جندها في القمة أُمّة لابد منتصرة ، وأُمّة معنويات جندها منهارة ، أُمّة لن يغني سلاحها عنها شيئاً .

يقول الفيلد مارشال مونتغمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) : « أهمّ مميّزات الجيوش الإسلامية لم تكن في المعدات أو التسليح أو التنظيم ، بل كانت في الرّوح المعنويّة العالية النّابعة من قوة إيمانهم بالدعوة الإسلامية »[١] .

☆ ☆ ☆

٤ ـ سِرّيّةُ التّحركات والاستعدادات « التّعمية على العدو » : كان النّبيُّ ﷺ يتّجه في بدء سيره إلى غزوة ما بعكس الجهة الّتي يريدها فعلاً ، فقد يتجه شمالاً عند بدء المسير ، ولكنه سرعان ما يغير سيره باتجاه الجنوب نحو عدوه ، وما ذلك إلاّ من قبيل التّعتيم على العدو .

وكان يأمر ﷺ بإغلاق الطّرق أحياناً ، كي لاتصل أخباره إلى العدو . قال

(١) « الحرب عبر التّاريخ » للفيلد مارشال مونتغمري ، صفحة : ١٨٨ ، تعريب العميد فتحي عبد الله النمر .

عليه الصَّلاة والسَّلام عندما أمر بالتَّهيُّؤ لفتح مكَّة : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها (نفاجئها) في بلادها » .

والدُّول الكبرى اليوم تخوض حرباً غير منظورة ، هدفها سرقة أسرار أعدائها ، ومعرفة سلاحها الحديث ، وقدراتها ، واستعداداتها ، ومعنوياتها ، واقتصادها .. وأُمَّة مكشوفة الأسرار لعدوها ، أُمَّة مهزومة ، وأُمَّة أقرب إلى السِّرِّيَّة والكتمان ، أقرب إلى النَّصر .

☆ ☆ ☆

٥ ـ **التحام القيادة مع الشَّعب** : كان النَّبيُّ ﷺ قبيل غزواته يكرر : « أشيروا عليَّ أيُّها النَّاس » .

هذا التحام بين القيادة والشَّعب جعلَ الجبهة الداخلية صَفّاً واحداً : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** ﴾ [الصَّف : ٤] .

واستشار سعد جنده قبيل القادسيَّة ، كيف لا .. وهو الَّذي رأى عُمَرَ يستشير النَّاس بشأن الجبهة الشَّرقيَّة الفارسيَّة ؟!

واستشار النُّعمان بن مقرِّن المزني جنده قبيل معركة نهاوند .

وقالت رسل المقوقس إليه : « أميرهم كواحد منهم » ، وهذا مالمسته رسل كسرى وقائده رستم أيضاً ..

ولأهمية وحدة الصَّف ، جعل اللهُ عزّ وجلّ سورة في القرآن العظيم عنوانها « الصَّف » ، أي الصَّف الواحد ، الذي وصفته آية في السورة نفسها : بالبنيان المرصوص .

فجبهة داخلية مفككة هي في انهزام داخلي قبل انهزامها العسكري الأكيد ، وأُمَّة هي بنيان مرصوص أقرب إلى النَّصر منها إلى الهزيمة .

☆ ☆ ☆

٦ ـ **السّلاح الوطني** : روى ابن ماجه في باب الجهاد : كانت بيد رسول الله ﷺ قوس عربيّة ، فرأى رجلاً بيده قوس فارسيّة ، فقال له النّبيّ ﷺ : « ارمها ، عليك بالقوس العربيّة » .

وهذا الحديث الشّريف دليل قاطع على أنّ الإسلام يأمر بصنع السّلاح بأرض المسلمين ، ولا يقبل باستيراده ، وهذا يثبته اليوم واقع الدُّول النّامية الّتي تعتمد في تسليحها على سلاح مستورد من الدول الكبرى ، فإنّ تحكُّم هذه الدُّول في مقدَّرات وإمكانات الدُّول المستورِدَة للأَسلحة تحكم جليّ ، وشروطها في مبيعاتها واضحة في أكوام الأسلحة القديمة الدفاعيّة المنسّقة .

فالسِّلاح الوطني من مقومات النّصر الكبرى .

☆ ☆ ☆

٧ ـ **متانة العقيدة ووضوحها** : إنّ وضوح العقيدة الإسلاميّة ، وبعدها عن الأسرار والتّكتُّم ، جعلها واضحة جلية في أذهان وقلوب أتباعها ، فالمنطلق واضح ، والهدف أوضح[1] .

كان الأعرابي يقاتل إمّا لثأر أو مغنم تحت لواء صنم القبيلة الخاص ، أما قال أبو سفيان بعد أُحُد : « اعل هبل ، اعل هبل » . أما تحت لواء الإسلام ، فصار المسلم يقاتل تحت عقيدة « الله رب العالمين » . وهذا جعل تجانساً في الفكر ، وتوحيداً في المنهج .. إذا قاموا إلى الصّلاة قاموا جميعاً ، وفي اللّيل لهم دوي كدويّ النّحل من تلاوة القرآن .. ولذلك جاءت إجابات رسل المسلمين إلى أعدائهم دائماً واحدة متجانسة :

قال عبادة بن الصامت للمقوقس : « ليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ،

(١) « كان العرب ـ المسلمون ـ يندفعون نحو القتال ويحركهم أقوى دوافع الحرب ، ألا وهو الإيمان والعقيدة » . الفيلد مارشال مونتغمري ، « الحرب عبر التاريخ » ، ص : ١٨٩

ولا نجيبك إليها ، إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيَّها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ، بذلك أمرني الأمير ـ أي عمرو بن العاص ـ وبها أمره أمير المؤمنين ـ أي عمر بن الخطاب ـ وهو عهد رسول الله ﷺ من قبله إلينا » .

هذه الكلمات تكرَّرت ذاتها في الجبهة الفارسيَّة ، وفي جبهة بلاد الشَّام ، وفي الأندلس ، وعلى أسوار الصِّين ، خصلة من ثلاث : إما الإسلام ، وإما الجزية ، وإما الحرب .

هذه العقيدة التي جانست فكر المجاهدين من مبادئها : الْعِزَّة ، والصَّبر ، والإخلاص ، والوفاء ، والقوة ، والحذر ، والثَّبات ، والإخاء ، والإيثار ، واليقظة ... هذه العقيدة تمكنت من قلوب المجاهدين ، فجعلتهم لا يبالون أوَقعوا على الموت ، أمْ وقع الموت عليهم .

فجيش عقيدته موحَّدة ، جيش متجانس فكرياً ، هدفه ثابت ، وسعيه مُوَحَّد .. وجيش تتخاطفه عقائد متعدِّدة ، جيش متفكك وهو قريب من الهزيمة ، بعيد عن النَّصر .

☆ ☆ ☆

٨ ـ **أهلية القيادة « أو القيادة المثلى »** : كان عليٌّ كرَّم الله وجهه يقول : كنا في المعارك إذا حمي الوطيس ، واحمرّت الحدق ، واشتد القتال ، كنا نتقي برسول الله ، ولم يكن أحد أقرب إلى العدو منه ، لذلك قال بعض الصحابة : كان أشجعنا خلف رسول الله .

وعزيمة الصِّدِّيق كانت جليَّة في حروب الرِّدَّة .

واختيار عمر رضي الله عنه للقيادات عجيب ، ولم يكن ينظر إلى صلاح الرجل في ذاته ، بل إلى صلاحه للقيادة أو الإمارة .

قال عمر لأصحابه : دلُّوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني ، قالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد ؟ قال : أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنَّهُ أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنَّه رجل منهم ، قالوا : مانعرف هذه الصِّفة إلاَّ في الرَّبيع بن زياد الحارثي ، قال : صدقتم فولاه .

وأمر عمر رضي الله عنه بكتابة عهد لرجل قد ولاه ، فبينما الكاتب يكتب ، جاء صبي فجلس في حِجْر عمر فلاطفه ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين لي عشرة أولاد مثله ، مادنا أحد منهم مني ، قال عمر : فما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرَّحمة من قلبك ، وإنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماء ، ثم قال : مزِّق الكتاب ، فإنَّه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرَّعية ؟

لقد اختار رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص للقادسيَّة ، فحقَّق النَّصر .

واختار النعمان لنهاوند ، فكان أوَّل الأسِنَّة عند لقاء العدو ، وحقق النَّصر .

ومع هذا التخيُّر كانت تعليماته لاتنقطع للقادة والأُمراء ، مع مكتب خاص يتتبع أخبار الجميع .

ومتصفِّح تاريخنا الإسلامي يرى كيف كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يباشر الحرب بنفسه ، وكذلك طارق بن زياد ، وورد عن نور الدين الشَّهيد أنَّه : « كان مَعْنياً بمصالح العباد ، مداوماً على الجهاد ، يباشر القتال بنفسه » .

هذه أمثلة ليست للحصر ، والقيادة المثلى سببٌ هامٌّ في تحقيق النَّصر[١] .

☆ ☆ ☆

---

(١) ويتحلى القائد المثالي بالقدرة على إصدار القرارات الصحيحة ـ لوضوح الهدف ولمعرفة ما يريد تحقيقه ـ وبالقدرة على تنفيذ هذه القرارات .

٩ ـ عدم القتال لدنيا : المقاتل كان يقاتل لله ، للعقيدة خالصة ، لذلك كانت الغنائم محرَّمة ، لقد كانت تحرق ، ليبقى قلب المجاهد مع الله وحده . ولما رُبِّيت هذه الأُمَّة التَّربية المثاليَّة عاشت لله ، فالغنائم لم تعد تزلزل مواقفهم عن مواطن الجهاد ، فأُعْطِيت ثواب الآخرة ، وزيادة على ذلك غنائم الدُّنيا لتحصيل حاصل بعد المعركة ، لذلك إن مالت النفوس إلى الغنائم تكون الهزائم .

وإن أصبح القتال لدنيا لا لنشر عقيدة ارتضاها الله لعباده ، ونسي المقاتلون الله وشريعته ، تصبح الحال بين الكفار وبين المسلمين اسماً : ياأيها الكَفَرَة اقتلوا الْفَجَرة .

☆ ☆ ☆

١٠ ـ المفاجأة : ونعني بها متابعة التَّقدم العلمي ، ودراسة آخر نتائج الفكر العسكري :

كانت الحرب في عرف العرب كرّاً وفرّاً ، وفاجأ النَّبيُّ ﷺ قريشاً في بدر بنظام الصُّفوف المتراصَّة الَّتي لم تُخْرَق .

وفاجأ خالد بن الوليد الرُّوم في اليرموك بنظام الكراديس .

في نهاوند فاجأ المسلمون الفرس في تراجع القلب عن قصد ليلتف عليهم الميمنة والميسرة وتمَّ بذلك حصارهم .

في ذات الصَّواري جعل عبد الله بن سعد بن أَبي سرح قتال البحر وكأَنَّه قتال في البر ، عندما فاجأ الرُّوم بربط السُّفن الإسلاميَّة مع سفنهم .

في الزَّلاَّقة فاجأ يوسف بن تاشفين النَّصارى بنظام الكمائن الَّتي دخلت ساحة المعركة في الوقت المناسب وهي في غاية الرَّاحة ...

فالقيادة المبدعة في التنظيم والتخطيط ، تبهر العدو ، وتفوّت عليه حساباته . وتضمن عنصر المفاجأة الّتي تربك العدو وتجعله في حيرة من أمره .

☆ ☆ ☆

١١ ـ **الحكمة** : نُقبل على الحرب عندما نتيقّن من أسباب نجاحها ، ونؤجلها ما دامت غير مواتية[1] . فالنّبيّ ﷺ ما حارب في مكّة ، على الرغم من الظلم والتعذيب لأصحابه ، وكان يضع الصّبر في قلوبهم ، ويعدهم بالْفَرَج الآتي ، وكان عمر يقول للنّبيّ : ألسنا على حق ؟ فيقول النّبيّ ﷺ مجيباً : « أنتم قليل يا عمر » .

ولما اكتملت الأسباب في المدينة المنوّرة ، وقامت دولة الإسلام فيها متينة مكتملة التربية والاستعدادات ، كانت الانتصارات الرّائعة .

فلا إقدام على حرب غير متكافئة وإلاّ تكون النتائج جد مؤلمة .

☆ ☆ ☆

١٢ ـ صفات المجاهدين الْخُلُقيّة والرُّوحيّة مهدت لهم طريق النّصر : إن السمعة الطّيبة ، والأخلاق التي تحلّى بها المسلمون الفاتحون حببتهم إلى الشعوب ، وخذلت عنهم الأعداء ، هذه الصّفات هي الّتي جعلت أهل حمص يبكون عندما غادرهم الجيش المسلم إلى اليرموك ، وجعلتهم يغلقون أبواب مدينتهم في وجه الروم . وهي الّتي جعلت أهل سمرقند يعشقون جيش قتيبة ، وهي الّتي جعلت الآلاف في الأندلس ينضمون إلى جيش طارق .. هذه الصّفات الخلقيّة الرفيعة هي الّتي جعلت جنوب شرق آسية ، وأواسط وجنوب أفريقية ، تدخل في الإسلام وينتصر فيها عقيدةً وانتساباً ، على الرغم من عدم وصول جيوش تحمل السُّيوف إليها .

---

(١) عُرّفت الحكمة بما يلي : فعل ما ينبغي ، على الشكل الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي .

خُلُق المسلم وسمعته الطَّيِّبة ، كانا سببين وجيهين لانتصار الإسلام وفوزه على العقائد الأُخرى . فالمقاتل المسلم ليس له شبيه من مقاتلي الأُمم الأُخرى ، إنَّه الجندي المثالي الذي خرج من جزيرته لنشر عقيدة تحمل في ثناياها حريَّة ، وإنسانيَّة ، وخيراً للبشريَّة جمعاء ، خرج ليبلغ كتاب الله عز وجل للناس أجمع ، فيصبحوا تحت لوائه إخواناً « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .



هذه أهمُّ مقومات النَّصر ، فما أعظم الإسلام ، وما أروع تربيته وتخطيطه ، لقد أيقظ العرب الذين لم يكونوا دولة مرهوبة الجانب على مرِّ حياتهم قبل الإسلام ، وانطلق بهم ليسطروا أروع انتصاراتهم الَّتي ما زالوا يتغنون ويفتخرون بها حتى يومنا هذا ، وعرب بلا إسلام ، عرب هزائم ، وعرب بالإسلام ، عرب الرِّفعة والعزَّة والكرامة ، لأنَّ العروبة لم تجد ذاتها إلاَّ في الإسلام .

وسيجد القارئ في صفحات هذا الكتاب ، أسباب الهزائم التي مرت على أُمَّتنا .

هذا من النَّاحية العسكريَّة ، أما من النَّاحية الفكريَّة ، فإن الهزيمة العسكريَّة قد تُبْقِي على كيان الأُمَّة ، أمَّا الانهزام الفكري فمعناه بدء النِّهاية للأُمَّة كلِّها .

فما أحرانا أن ننظر إلى الصراع الفكري من خلال التَّاريخ والواقع ، لنرى مدى حاجة أُمَّتنا العربيَّة إلى الإسلام ، وهذا ما سنراه من خلال بحثنا لبعض المفاهيم التي تغزو أُمَّتنا وأفكارها . وهذا ما سنراه من جهل الجاهلين الَّذين يظهرون الغيرة على الأُمَّة ، وهم معاول هدم في أيدي أعدائها .

ونقول في خاتمة هذه المقدّمة :

إن أُمّةً لا تعرف الوهن ، أمّة لاريب منتصرة في معاركها .
وإن أُمّة قُذف الوهن في قلوب أبنائها ، أمّة لا شك منهزمة .

﴿ الّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيْمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اَللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ وَاللهُ ذو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ ، [آل عمران : ١٧٣ و١٧٤] .

فعلى بركة الله نبدأ ، فهو المولى ، وهو نعم النّصير .

شوقي أبو خليل
ص . ب ٦٢٢٢
دمشق - سورية

مخالفة أمر القائد
وَخرق الخطة العَسكرية

☆ ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [آل عمران : ١٥٢] .

☆ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .
[آل عمران : ١٥٥] .

☆ انتصر المسلمون في بدر في السنَّة الثَّانية للهجرة ، ورجعت فلول قريش إلى مكَّة منهزمة ، فعصرت الهزيمة قلوب رجالها ، ممن أصيب أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم يوم بدر ، ومنهم عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أُميَّة ، فكلَّموا أبا سفيان ، فقالوا : يامعشر قريش ، إنَّ محمَّداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال ـ يعني مال القافلة التي كانت مع أبي سفيان ـ على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً . ففعلوا ..

خرجت قريش بجدِّها وحديدها ، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا بالظُّعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا ، وخرج أبو سفيان ـ وهو قائد

النَّاس يومئذ ـ ومعه زوجه هند بنت عتبة بن ربيعة ، حتى نزل ونزلت قريش ببطن الوادي قبلي أُحُد[1] .

سمع النَّبيُّ ﷺ والمسلمون الأمر ، فقال عليه السَّلام للمسلمين : « قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً تذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أنِّي أدخلت يدي في درع حصينة ، فأولتها المدينة »[2] .

كان رأي النَّبيِّ واضحاً جلياً ، لقد أراد أن يقيم بالمدينة ، ويقاتل قريش فيها بعد تحصينها . ولكن مخالفة أمر الرَّسول القائد بدأت من هنا ، ومن تلك المخالفة بدأت الهزيمة .

فمن لم يشهد بدراً من الناس قال للنَّبيِّ ﷺ : نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم . ورجوا أن يصيبهم من الفَضل والمكانة ما أصاب أهل بدر ، وليبلوا كما أبلى إخوانهم يوم بدر ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير .

وقال رجل من الأنصار : متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شِعبنا ؟

وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة ـ من بني سالم ـ : يانبي الله لا تحرمنا الجنَّة ، فوالذي نفسي بيده لأدخلنَّها . فقال له رسول الله ﷺ : بِمَ ؟ فقال نعيم : بأنِّي أُحب الله ورسوله ، ولا أفر يوم الزَّحف ، فقال رسول الله : صدقت ، واستشهد رضي الله عنه بأُحُد[3] .

---

(1) أُحُد : جبل بينه وبين المدينة المنوَّرة قرابة ميل في شمالها ، وعنده كانت غزوة أُحُد « معجم البلدان ، جـ : ١ ، ص : ١٠٩ » .

(2) الاكتفاء : ١/١٠٠ ، ابن هشام : ٣/١٦ ، الكامل في التَّاريخ : ٢/١٠٣ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣/٢١ ، عيون الأثر : ٢/٣

(3) الطَّبري : ٢/٥٠٣

وقال آخر : يـا رسول الله اخرج بنـا إلى أعـدائنـا ، لا يرون أنّـا جَبُنّـا عنهم وضعفنـــا .. وأبى كثير من النّـــاس إلاّ الخروج إلى العـــدو ، ولم يتنـــاهـــوا إلى رسول الله ﷺ ، لا مخالفة مقصودة ، فيهـا روح التحـدّي لأمر رسول الله ، لا .. بل اندفاعاً إلى عدوهم ، ليكون لهم ما كان لأهل بدر[1] .

فما زالوا برسول الله حتى لبس أداة الحرب ، وما لبثوا أن ندموا على مخـالفتهم لأمر القائد ، عندما تلاشت تلك العاصفة من الاندفاع العاطفي ، وعندما عـادوا إلى العقل وتحكيم الإيمان بطاعة رسول الله .

صلى رسـول الله ﷺ الجمعـة ، ووعـظ النـاس ، وذكّرهم ، وأمرهم بـالجـد والجهاد ، ثم انصرف من خطبتـه وصلاتـه ، فـدعـا بلأْمَتِـهِ فلبسهـا[2] ، ثم أذّن في النّـاس بـالخروج ، فلمـا رأى ذلـك رجـال من ذوي الرأي قـالـوا : **أمرنـا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة ، وهو أعلم بالله وما يريـد ، ويأتيـه الوحي من السّماء ، فقالوا : يارسول الله امكث كما أمرتنـا . فقـال : ما ينبغي لنبيٍّ إذا أخذ لأمَةَ الحرب ، وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل ، وقد دعوتكم**

---

(١) نصوص هذا البحث ، في الكتب المعتمدة التالية :
- البداية والنّهاية ، الجزء الرابع ، صفحة : ١٠ وما بعدها .
- الكامل في التّاريخ ، الجزء الثاني ، صفحة : ١٠٣ وما بعدها .
- الطبري ، الجزء الثاني ، صفحة : ٤٩٩ وما بعدها .
- ابن خلدون ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، صفحة : ٢٤ ومابعدها .
- إنسان العيون « السّيرة الحلبيّة » ، الجزء الثاني ، صفحة : ٢٢٨ وما بعدها .
- السّيرة النبويّة لابن هشام ، الجزء الثالث ، صفحة : ١٤ وما بعدها .
والنصوص موجودة أيضاً في كتب الأحـاديث الشّريفـة ، يمكن الرجوع إليهـا بسهولـة ، وقـد اعتمدت هنا « البداية والنهاية » بشكل رئيسي .

(٢) اللأمة : الدرع ، وجمعها « لؤم » (وقد يسمّى السّلاح كلّه لأمة) ، لسـان العرب ، جـ : ١٢ ، ص : ٥٣٢

إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله ، والصّبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا » .

فخرج رسول الله ﷺ والمسلمون ، وهم ألف رجل حتى نزل بأُحُد ، والمشركون القرشيون ومن معهم ثلاثة آلاف .

ورجع عن رسول الله عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول في ثلاث مئة[1] ، فبقي رسول الله في سبع مئة . لقد كان رأي عبد الله بن أُبَيّ عدم الخروج من المدينة ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ماندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيُّها الناس ، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النِّفاق والرِّيب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السَّلمي ، والد جابر بن عبد الله ، فقال : ياقوم أذكركم الله أن لاتخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم . قالوا : لو نعلم أنَّكم تقاتلون ماأسلمناكم ، ولكنا لانرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلاَّ الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني عنكم نبيَّه ﷺ .

وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله عز وجل :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ ، [آل عمران : ١٦٧] .

يعني أنَّهم كاذبون في قولهم لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، ذلك لأن وقوع القتال أمْره ظاهر بَيِّن واضح ، لاخفاء ولاشك فيه .

---

(١) في منتصف المسافة بين المدينة وأُحُد ، انخذل عن النبي ﷺ عبدَ الله بن أُبي بن سلول بثلث الجيش ، وجعل تبريراً لخيانته ، فقال : أطاعهم وعصاني . [البداية والنهاية : ٩/٤ ، الطبري : ٥٠٤/٢ ، السِّيرة النبويّة : ١٧/٢ ، الكامل في التاريخ : ١٠٣/٢] .

وفي أُحُد ، نظَّم النَّبيُّ ﷺ المجاهدين ، لقد وضع خطة عسكريَّة نفَّذها على واقع أرض المعركة ، كان من أهمِّ معالمها أنّه وضع خمسين رامياً بقيادة عبد الله بن جبير على الجبل[1] ، لحماية مؤخرة الجيش ، وقال ﷺ لأمير كتيبة الرُّماة ، والرُّماة يسمعون : انضح[2] الخيل عنا بالنَّبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك .

وقال ﷺ : لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، وقال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم[3] فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم .

وبدأ القتال ، فأنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم الله وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفت قريش ، وكانت الهزيمة لا شك فيها مطبقة عليها .

قال الزبير بن العوام : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة - زوجة أبي سفيان - وصواحبها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلّوا ظهورنا للخيل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل ، فأنكفأنا وانكفأ القوم علينا بعد أن أصبنا أصحاب اللواء . حتى ما يدنو منه أحد منهم[4] .

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ١٠٥/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٢٩/٢ ، البداية والنِّهاية : ١٤/٤ ، ابن هشام : ١٨/٢ ، وتمركز الرُّماة في جبل عينين ، المسمَّى بجبل الرُّماة اليوم ، ويقع جنوب غرب معسكر المسلمين ، على بعد مئة وخمسين متراً عن مقر القيادة .

(٢) انضح : ادفع .

(٣) أوطأناهم : مشينا عليهم وهم قتلى . (اللسان : وطأ) .

(٤) السِّيرة الحلبيَّة : ٢٣٩/٢ ، الرَّوض الأُنُفُ : ١٥٥/٣ ، البداية والنهاية : ٣٤/٤ ، الاكتفاء : ١٠٢/١

لقد انكشف المسلمون ، وأصاب منهم العدو ، وكان يوم بلاء .. وتم النّصر العسكري لقريش . فلماذا نزل الرُّماة . ولماذا تركوا قائد كتيبتهم عبد الله بن جبير ؟

قال الرُّماة : الغنيمة . أي قوم . الغنيمة . ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : عهد إليَّ النَّبيُّ ﷺ أن لاتبرحوا ، أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ فأبوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبنَّ من الغنيمة !!

لقد خالف الرماة أمر رسول الله . أمر الرسول القائد ﷺ ، ونزلوا ممزِّقين خطته العسكريَّة . فطوقت خيلُ قريش المسلمين . بعد أن قتلت من بقي مع عبد الله بن جبير[1] .

وخلال هذا الموقف الحاسم . قاتل مصعب بن عمير دون رسول الله حتى قُتِل ، وكان الذي قتله ابن قمئة اللَّيثي ، وهو يظن أنه رسول الله . فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمداً[2] ، فخارت قوى المسلمين . حتى رأى أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - رجالاً من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا ما بأيديهم ، فقال : فما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ . قال : فما تصنعون بالحياة بعده . قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل ، وبه سمي أنس بن مالك . ومما قاله رضي الله عنه قبيل استشهاده : اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، أي مخالفة أمر الرسول القائد وتركهم للقتال ، لقد وجِد بأنس بن النضر رضي الله عنه يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه[3] .

---

(١) ثبت معه رضي الله عنه دون العشرة ، وقال : لاأُجاوز أمر رسول الله ﷺ .

(٢) لأن مصعباً رضي الله عنه إذا لبس لأمته يشبه النبيَّ ﷺ .

(٣) البداية والنهاية : ٣١/٤ ، الطبري : ٥١٧/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٥٩/٢ ، الاكتفاء : ١٠٣/١ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٢/٣ ، ابن هشام : ٣٠/٣

وكان أُبَيّ بن خلف الجمحي يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول : يا محمد إن عندي العودَ ـ فرساً ـ أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك إن شاء الله . وفي أُحُد فرَّ أُبَيٌّ بن خلف ، فقال النَّبيُّ له : يا كذاب أين تفر ؟ فحمل عليه فطعنه ﷺ فجَرح جرحاً خفيفاً ، فوقع يخور خوار الثور . فاحتملوه وقالوا له : ليس بك جراحة فما يجزعك ؟ قال : أليس قال لأقتلنك لو كانت تجتمع ربيعة ومضر لقتلهم . قتلني والله محمد ، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني .. فمات بموضع يقال له « سَرِف[1] » وقريش عائدة به إلى مكة .

انتهت المعركة بفوز قريش عسكريّاً .. فأدركت أبا سفيان الحميَّة الجاهليَّة . فصاح : أَفي القوم محمد ؟ فقال النَّبيُّ لا تجيبوه . فقال : أَفي القوم ابن أَبي قحافة ؟ فقال النَّبيُّ ﷺ : لا تجيبوه ، فقال أَفي القوم ابن الخطاب ؟.. ثم قال : إنَّ هؤلاء قُتِلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يحزنك .

ثم صاح أبو سفيان بحمية جاهلية : أعْلُ هُبَل ، أعل هبل[2] ، فقال عمر لرسول الله : ألا أُجيبه ؟ قال : بلى ، فقال عمر : الله أَعلى وأَجل . فقال أَبو سفيان : لنا العُزّى ، ولا عُزّى لكم[3] ، فقال النَّبيُّ ﷺ أجيبوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أَبو سفيان : يوم بيوم

---

(١) سَرِف : موضع على ستة أميال من مكَّةَ .

(٢) هبل : أعظم أصنام قريش ، كان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى . فصنعت له قريش يداً من ذهب ، وكان أوّل من نصَّبه في الكعبة خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكان يقال له : هبل خزيمة .

(٣) العزى : من الأصنام ، وكانت تمثل شجيرات في وادي نخلة ، وبلغ من تعظيم العرب وقريش إياها أن كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى ، راجع كتاب الأصنام لابن الكلبي ، صفحة ٨ وما بعدها .. .

بدر . الأيَّام دول وإن الحرب سجال ، قال عمر : لاسواء ، قتلانا في الجَنَّة وقتلاكم في النَّار . ثم قال أبو سفيان مجيباً : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خبنا إذن وخسرنا ، أما إنَّكم سوف تجدون في قتلاكم مثلة[1] ، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا ، ثم قال : أما إنَّه إن كان ذلك لم نكرهه . ثم قال أبو سفيان : هلمّ إليّ ياعمر . فقال رسول الله ﷺ لعمر : ائته فانظر ماشأنه . فجاءه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمَّداً ؟ فقال عمر : اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبَرّ[2] .

ولما انصرف أبو سفيان نادى : إنَّ موعدكم بدر العام المقبل ، فقال النَّبيُّ ﷺ لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينك موعد[3] .

وبعد المعركة قال رجال من قريش ، بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً : أصبتم شوكة القوم وحدَّهم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم .

---

(١) لقد مثلت هند بنت عتبة بسيد الشهداء الحمزة بعد أن قتله وحشي بحربته .

(٢) ابن هشام : ٣٧/٣ ، البداية والنهاية : ٣٨/٤ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٥٧/٢

(٣) ومن روائع صور أُحُد ، أن النبي أرسل محمد بن مسلمة لينظر له مافعل سعد بن الربيع ، أفي الأحياء هو أمْ في الأموات ، ذكر ابن مسلمة أنه نادى سعد بن الربيع مرتين فلم يجبه من شدة ألمه ولوقوعه في النزع . ولكن لما قال ابن مسلمة : إنَّ رسول الله أمرني أن أنظر خبرك ، أجابه بصوت خفيف : أنا في الأموات ، فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي ، وإن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ماجزى نبيّاً عن أُمَّته ، وأبلغ قومك عني السَّلام ، وقل لهم : وإن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه إلى بارئها .

وبما يذكر أن سعد بن الربيع كان من النقباء ليلة العقبة : وهو الذي آخى رسول الله بينه وبين عبد الرحمن بن عوف [الكامل في التاريخ : ١١٢/٢ ، الطبري : ٥٢٨/٢ ، البداية والنهاية : ٣٩/٤ ، ابن هشام : ٣٨/٣ عيون الأثر : ١٩/٢ ، السِّيرة النبويَّة لابن كثير : ٧٨/٣ ، الرّوض الأنف : ١٧١/٣] .

فلما سمع النَّبيُّ ﷺ بذلك ، أمر بطلب العدو وقال : « لا ينطلقنَ معي إلا من شهد القتال » ، على ما بهم من القَرْح ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لله وَالرَّسُولِ مِنَ بَعْدِ مَاأَصابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُم وَاتَّقَوا أجرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٢] .

خرج رسول الله ﷺ يريد قريشاً . خرج في طلبها ، لتعلم مع من حالفها من الأعراب ، أنَّ الَّذي أصاب المسلمين في أُحُد لم يوهِنْهُم عن عدوهم . إنَّه حدث عارض سببه مخالفة أمر الرسول القائد .

خرج رسول الله حتَّى انتهى إلى « حمراء الأسد »[1] ، وبينما هو فيها ﷺ ، مرَّ به معبد الخُزَاعي ، وهو يومئذ مشرك ، فقال : يا محمَّد ! أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أنَّ الله عافاكَ فيهم ، ثم خرج معبد من عند رسول الله ﷺ ، ولقي أبا سفيان بن حرب ومن معه « بالرَّوْحَاء »[2] ، وقد أجمعوا الرَّجعة إلى رسول الله وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حَدَّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكُرنَّ على بقيتهم ، فلنفرغَنَّ منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يامعبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط ، يتحرَّقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلَّف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال أبو سفيان : ويلك ما تقول ؟ قال معبد : والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ، قال فوالله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصل شأفتهم ، قال

(١) حمراء الأسد : من المدينة المنورة على ثمانية أميال : أقام بها النَّبيُّ الكريم ثلاثة أيَّام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ شوال ، السنة الثالثة للهجرة : [ابن هشام : ٤٤/٣ ، البداية والنهاية : ٤٩/٤ ، الاكتفاء : ١٠٥/١ ، ابن خلدون : ٢٧/٢] .

(٢) بقعة بين المدينة ومكة ، وسُمِّيت الرَّوْحاء لانفتاحها ورواحها ، « معجم البلدان ، جـ : ٣ . ص : ٧٦ » .

معبد : فإني أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيه أبياتاً من الشعر ، قال أبو سفيان : وماقلت ؟ قال معبد : قلت :

كَادَت تُهَدُّ من الأَصْواتِ راحلتي ... إذْ سالتِ الأَرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ[1]

تردي بِأُسْدٍ كِرَامٍ لا تَنَابِلَةٍ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلا مِيْلٍ معازيلِ[2]

فظلت عَدْواً أظنُّ الأَرضَ مائلةً ... لَمَّا سَمَوا برئيس غير مخذول

فقلتُ ويلَ ابن حرب من لقائِكُمُ ... إذا تغطْمَطَتْ[3] البطحاءُ بالجيلِ[4]

إني نذيرٌ لأهل البَسْلِ[5] ضاحيةً ... لِكُلِّ ذي إربةٍ منهم ومعقولِ

من جيش أحمد لا وَخشٍ[6] تنابلةٌ ... وليس يوصف ماأنذرتُ بالقيلِ

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه[7] .

هذا ملخَّص أحداث أُحُد ، حيث تجاور فيها النصر والهزيمة ، فرق بينهما مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، والالتفات إلى الغنائم وترك المواقع .

هذه هي أهمُّ أحداث أُحُد ، حيث تجاور فيها نماذج فريدة من الإيمان والبطولة ، ونماذج من النِّفاق والهزيمة !

لقد دفع المسلمون المنهزمون الثَّمن غالياً ، ليتلقّوا درساً ثميناً غالياً ، ليعيد

---

(١) قال الأخفش : يقال جاءت إبلك « أبابيل » أي فِرَقاً ، والمعنى هنا أن كتائب الإبل والخيل الّتي مع رسول الله كانت كثيرة لاتعد ، والجرد : عتاق الخيل ، والأبابيل : الجماعات .

(٢) تردي : تسرع ، والتنابلة : القصار ، والميل : الذين لا رماح معهم ، والمعازيل : العُزّل من السّلاح .

(٣) تغطمطت : اهتزت .

(٤) الجيل : الصنف من الناس .

(٥) أهل البسل : قريش ، والضاحية : الظاهرة كالشمس ، والإربة : العقل .

(٦) الوخش : الرديء ، رذلة الناس .

(٧) ابن هشام : ٤٥/٣ ، السيرة النبويّة لابن كثير : ١٠٠/٣

الجماعة المسلمة لمهمتها العظمى « مهمة القيادة الرَّاشدة للبشرية ، وإقرار منهج الله في الأرض ، في صورته المثاليَّة الواقعيَّة »[1] .

لقد أبقى القرآن الكريم في آياته نصوصاً باقية لكل قلب مؤمن ، في أي زمان وأي مكان ، لتكون دروساً تستلهم منها أسباب النَّصر ، وتُحذر بها أسباب الهزيمة .

مخالفات حدثت ، كانت أسباب الهزيمة ، أولاً في المدينة ، وثانياً في الطريق ، وثالثاً أثناء القتال :

١ ـ ففي المدينة المنوَّرة .. كان رأي النَّبيِّ ﷺ البقاء فيها ، ولكن حماس من لم يشهد بدراً ، ظهر عندما طبَّق النَّبيُّ مبدأ الشُّورى ، وكان من حقه ﷺ أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة الشُّورى ، ولكنه أمضاه ، وهو يدرك ما وراءه من الآلام والخسائر والتضحيات ، لأنَّ إقرار المبدأ ، وتعليم الجماعة ، وتربية الأُمَّة ، أكبر من الخسائر الوقتيَّة .

٢ ـ وفي الطريق .. ظهرت المخالفة في تغليب الاعتبارات الشَّخصيَّة ، أو الكرامة الفرديَّة على العقيدة ، عند زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول ، فزعزع وحدة الصَّف ، وأحدث خلخلة في الموقف ، وأحدث انسحابُهُ هبوطاً في درجات الرُّوح المعنويَّة ، حتى أنَّ الأنصار استأذنوا حينئذ رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة ، فقال ﷺ : لا حاجة لنا فيهم .

٣ ـ وأثناء المعركة .. كان العامل الرئيسي للهزيمة . إن المخالفة في المدينة ، والمخالفة في الطريق ، كانتا سببين غير مباشرين ، سببين ممهدين ، أما المخالفة أثناء المعركة فقد كانت السبب المباشر للهزيمة .

---

(١) راجع « في ظلال القرآن » ، جـ : ٤ ، ص : ٦٣ وما بعدها ، فالتعليق بتصرف من المرجع المذكور .

إن مخالفة الرُّماة لأمر رسول الله ﷺ ، الذي هو من أَمر الله ، كان خرقاً للخطة العسكرية الَّتي وضعها الرَّسول القائد ، وكان هذا الخرق ، وهذه المخالفة بسبب الطمع في الغنيمة عند بعض الرُّماة ، مما جعلهم يتأوّلون أمر رسول الله ﷺ ، ولا شك أنَّ المخالفة قد جاءت من ظنهم أن المعركة قد حُسِمت ، وأنه لا معنى لبقائهم في مواقعهم . واجتهد بعضهم بمعاونة أصحابهم في مطاردة المنهزمين من قريش ، وجمع السَّلب منهم ، وإدراك ثاراتهم بأيديهم .

ولم تغنِ النَّماذج العالية من البطولة ، الَّتي تجلَّت في المعركة ، عن المصير الذي انتهت إليه بسبب ذلك الخلل في الصَّف ، والَّذي تجلّى أخيراً في مخالفة الخطَّة العسكريَّة النَّاجحة الَّتي وضعها ورتبها رسول الله ﷺ .

لقد أَصاب المسلمين القَرْحُ في أُحُد ، قُتِل منهم سبعون صحابياً ، وكسرت رباعية رسول الله ﷺ ، وشُجَّ وجهه الشَّريف ، كل ذلك ليرد الله عزَّ وجلَّ المسلمين إلى سننه ونواميسه ولو كان رسول الله ﷺ بينهم . فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلَّف ، والأُمور لا تمضي جزافاً ، إنَّما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأَحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام ، واستشفوا خط السَّير ، على ضوء ما كان في ماضي الطريق ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النَّصر والتَّمكين دون الأَخذ بأَسباب النَّصر ، وإن أَولها طاعة الله وطاعة رسوله .

لقد ربَّى الله الجماعة الإِسلاميَّة في هزيمة أُحُد العسكريَّة ، وهي في مطلع خطواتها لقيادة البشريَّة ، ربَّاها بالابتلاء بالشدَّة ، بعد الابتلاء بالرَّخاء ، والابتلاء بالهزيمة المرَّة بعد الابتلاء بالنَّصر ، هذا وذاك وضعا وفق أَسبابها ، ووفق سنن الله الجارية في النَّصر والهزيمة ، لتتعلم هذه الجماعة أَسباب النَّصر والهزيمة ، ولتزيد طاعة الله ، توكلاً عليه ، والتصاقاً بركنه ، وتطبيقاً لشرعه ، ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين .

ولقد كان الله سبحانه قادراً على أن يمنح النَّصر لنبيه منذ اللحظة الأُولى وبلا كد من المؤمنين ولا عناء ، ولكنه سبحانه ما أراد أن يعوِّد المسلمين على التقاعس ، وبالتالي على الاعتماد على خوارق العادة ، ونزول المعجزة ، لقد صحَّحت أُحُد القصور عند المسلمين ، وحذرتهم من مفهوم المخالفة لله ولرسوله(١) .

إنَّ نزول الرُّماة بعد تأكيد أَمر رسول الله ﷺ بالتزام مكانهم في كل ظرف ، ضعف أمام إغراء الغنيمة ، بعد أن رأوا النَّصر الَّذي يحبونه ، فتفرَّق الصَّف لتفرّق الدوافع ، فريق يحب الآخرة ويسعى إليها ، وفريق يريد غنيمة الدُّنيا ، فلم يعد الهدف واحداً : ﴿ **مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ . [آل عمران : ١٥٢] .

« إنَّ لِكُلِّ حادث سبباً ، ووراء كُلِّ سبب تدبير اللَّطيف الخبير(٢) » .

ما جرى في أُحُد ناموس ثابت ، وسنن حتميَّة لمخالفة أمر رسول الله ﷺ ، لقد حادوا عن سنن النَّصر وشروطه ، فمن سننه الرئيسة « الطَّاعة » ، طاعة رسول الله ﷺ التي هي من طاعة الله ، وفهم أَصحاب أُحُد الدَّرس القاسي ، لذلك لبُّوا نداءه ﷺ لما دعاهم وحدهم دون غيرهم من المسلمين لملاقاة قريش ، فساروا إلى « حمراء الأَسد » يحملون قروحهم وجراحاتهم .

فممَّا لا شك فيه أن الطاعة هي قوام النظام في كل جيوش العالم ، وعلى أساسها يضع القائد خطته في المعركة ليحقِّق النصر ، فإذا ما انعدمت الطَّاعة ، فسدت الخطَّة ، وصار الأَمر فوضى وخسران .

وهذا ما حدث في أُحُد ، فقد خالف الرُّماة أمر رسول الله ﷺ وهو القائد الأَعلى ، وخرجوا على أميرهم عبد الله بن جبير وهو قائد كتيبتهم ، واندفعوا مع

---

(١) راجع تفسير سورة آل عمران في الظلال .

(٢) القول للمرحوم سيد قطب .

رغباتهم في حيازة الغنائم ، ففسدت بذلك الخطَّة التي وضعها القائد ، ورتب خطواتها على أساس الطَّاعة التَّامة من الجنود ، فكانت مخالفة الجنود سبباً في فساد الخطَّة ، وكان فساد الخطَّة سبباً في اضطراب الجيش ، وكان اضطراب الجيش سبباً في تحوّل النَّصر إلى هزيمة ، وقد أوشكت هذه الهزيمة أن تكون ساحقة لولا رعاية الله ولطفه[1] .

ماالَّذي دفع الرُّماة إلى هذه المخالفة التي خرقت الخطَّة العسكريَّة وأوقعتهم في الهزيمة ؟

أهو الخروج على طاعة القائد ؟

أَمْ هو الحرص على اغتنام الغنائم وجمع الأَسلاب ؟

أَمْ هو خطأ التقدير لظروف المعركة وملابساتها ؟

إنَّهم تأوَّلوا قول رسول الله ﷺ حين رأوا الأَعداء منهزمين ، وإخوانهم يجمعون الغنائم ، فلا بأس من مغادرة المواقع والاشتراك في جمع الغنائم ، فأراد الله أن يدرك المؤمنون سُنَّةً من سننه في خلقه ، أنَّ النَّصر لا يكون إلاَّ بأَسبابه ، وأَن الهزيمة لها أَسبابها أَيضاً ، حتى لو كان رسول الله بين الصحابة في المعركة .

وهذا يدل بوضوح على **أنَّ صلاح العقيدة وحده غير كافٍ لتحقيق النَّصر ، فللنَّصر نواميسه وأسبابه ، وإنَّ الأَخذ بهذه الأَسباب من صلاح هذه العقيدة .. إنَّ منهج الله ثابت ، وموازينه ثابتة .**

---

(١) راجع (صور من حياة الرسول) ص : ٣٦٩ ومابعدها .

الغفلة عَن الله
والإعجاب بالكثرة

☆ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

[التوبة : ٢٥/٢٦] .

☆ سمعت قبيلة هَوَازِن بأَخبار فتح مكة ، فأكل النَّصرُ المبين الَّذي حقَّقه رسولُ الله كبدها ، فاجتمعت حول رئيسها مالك بن عوف النصري ، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلُّها ، ونصر وجشم وسعد بن بكر ، وكثيرون من بني هلال ، وغاب عن هذا الجمع كعب وكلاب ... وكان هذا الجمع كلُّه بقيادة مالك بن عوف ، وفيه دريد بن الصمة ، وهو يومئذ شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلاَّ التَّيَمُّن برأيه ، ومعرفته بالحرب[(١)] .

---

(١) مراجع هذا البحث :
- السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام ، جـ : ٤ ، ص : ٦٠ وما بعدها .
- السِّيرة الحلبيَّة ، جـ : ٣ ، ص : ١٢١ وما بعدها .
- البداية والنِّهاية ، جـ : ٤ ، ص : ٣٢٢ وما بعدها .
- الكامل في التَّاريخ ، جـ : ٢ ، ص : ١٧٧ وما بعدها .
- تاريخ الطَّبري ، جـ : ٣ ، ص : ٧٠ وما بعدها .
- الوفا بأحوال المصطفى ، الباب : ٢٧ في جـ : ٢ ، ص : ٧٠٢ وما بعدها .
- كتب التفسير ، انظر تفسير الآية : ٢٥ وما بعدها من سورة التَّوبة .

ولما أجمع مـالـك بن عوف ومن معـه على السَّير إلى رسول الله ﷺ ، أحضر مع الناس أموالهم ونساءَهم وأبناءهم ، فلمـا نزل بـأَوْطَـاس[1] ، اجتمع إليـه النَّـاس . وفيهم دُرَيْد بن الصِّمَّة في شِجَار[2] له يُقَادُ فيـه ، فلمـا نزل قـال : بـأيِّ وادٍ أنتم ؟ قـالـوا : بـأوطـاس ، قـال : نعم مجـالُ الخيـل ! لا حَـزْنٌ ضَرِس[3] . ولا سَهْـل دَهِس[4] ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، ويُعَار الشاء ، وبكاء الصغير !

قالوا : ساقَ مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

فقال : أين مالك ؟

قالوا : هذا مالك ، فَدُعي له .

فقال : يامالك ، إنَّك قـد أصبحتَ رئيس قومـك ، وإنَّ هـذا يومٌ كائن لـه مابعده من الأَيَّام ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونهـاق الحمير ، ويُعَـار الشـاء ، وبكاء الصغير !

قال مالك : سُقْتُ مع النَّاس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

قال دريد : ولِمَ ؟

قال : أردتُ أن أجعل خَلْف كُلِّ رجل أهلَهُ ومالَهُ ليقاتل عنهم .

قـال : ـ وقـد أنْقَضَ بـه[5] زاجراً مـؤنبـاً ـ ، راعي ضـأنٍ والله ، مـالـك

---

(١) أَوْطَاس : واد في ديار هوازن ، [معجم البلدان : ٢٨١/١] .

(٢) الشِّجار : شبه الهودج ، إلا أنه مكشوف الأعلى ، وفي (اللِّسـان : ٣٩٧/٤) : الشِّجـارُ : المَوْدَج الصغير الذي يكفي واحداً . ودريد فيه لأنه تجاوز مئة وعشرين سنة بكثير .

(٣) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس : الذي فيه حجارة محددة .

(٤) الدهس : اللِّين الكثير التراب .

(٥) أنقض به : أي نقر بلسانه في فيه كما يزجر الحمار ، فعله استهجـانـاً (اللسـان : نقض) ، وقيل الإنقاض بالإصبع الوسطى والإبهام ، كأنَّه يدفع بها شيئاً .

وللحرب !؟ هل يَرُدُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنَّها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك ، إنَّكَ تقَاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى اليهود .

ثم قال : مافعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهد منهم أحد ، قال : غاب الجِدُّ والحدُّ ، لو كان يوم عَلاءٍ ورفعة لم تَغِب عنه كعب وكلاب ، ولوَددت أنكم فعلتم مافعلتْ كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟

قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر .

قال : ذانك الجَذعان[1] من بني عامر ! لا ينفعان ولا يضرّان ، يامالك إنَّك لم تصنع بتقديم البَيْضة ، بيضة هوازن ، إلى نُحُور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى مُتَمنَّع بلادهم وعُليا قومهم[2] ، ثم القَ الصُّبَاة[3] على مُتُون الخيل ، فإن كانت لك لَحِق بك مَنْ وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزتَ أهلك ومالك .

قال مالك بن عوف : والله لاأفعل . إنك قد كبرتَ وكبر علمك . والله لتطيعُنَّني يامعشرَ هوازن أو لأتَّكئَنَّ على هذا السَّيف حتى يخرج من ظهري ! وكره مالك (وهو الفارس الشجاع) أن يكون لدريد فيها ذِكْرٌ أو رأيٌ .

فقال دُرَيْد بن الصِّمَّة : هذا يوم لم أشهده ، ولم يَفُتْني :

يالَيْتَني فِيها جَذَعْ[4] أَخُبُّ فِيها وَأَضَعْ[5]

---

(١) الجذع : الشاب الحدث ، الصغير السِّن ، [اللِّسان : ٤٣/٨] .
(٢) في الطبري ٧٢/٣ : ارفعهم إلى أعلى بلادهم ، وَعُليا قومهم .
(٣) الصُّبَاة : جمع صابئ ، وهم المسلمون عندهم ، كانوا يسمونهم بذلك لأنهم صبؤوا من دينهم ، أي خرجوا .
(٤) الجذع : الشَّاب الحدث كما مرَّ في الحاشية (١) أعلاه .
(٥) الخبب والوضع : ضربان من السَّير .

أَقُـودُ وَطْفَـــاءَ الــزَّمَـــعْ كَـــأَنَّهـــا شَـــاةٌ صَــدَعْ[1]

ثم قال مالـك للنـاس : إذا أنتم رأيتم القومَ فـاكسروا جفونَ سيوفكم . وشُـدُّوا شَدَّة رجل واحد عليهم . كما أرسل مالكُ عيوناً من رجـالـه لينظروا لـه ، ويـأتوه بخبر المسلمين ، فرجعوا إليه وقـد تفرَّقت أُوصـالُهم ، فقـال : ويلكم ! مـاشـأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق[2] ، فوالله ماتماسكنا أن أصابنـا مـاترى ! فلم ينهَهُ ذلك عن وجهه ، أن مضى على ما يريد .

سمع بما سبق رسول الله ﷺ ، فبعث إلى هوازن ومن معهـا عبـدَ الله بن أبي حَدْرد الأَسلمي ، وأمره أن يدخلَ في النـاس ، فيقيم فيهم حتى يـأتيَـه بخبر منهم ، ويعلم مِنْ علمهم ، فانطلق ابن أبي حَـدْرَد ، فـدخل فيهم ، فـأَقـام معهم حتى سمع وعلم ماقد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وعلم أمرَ هوازن وما هم عليـه ، ثم أتى رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر .

خرجَ رسـولُ الله ﷺ ومعـه أَلْفــان من أهـل مكـة ، مـع عشرة آلاف من أَصحـابـه الَّـذين فتح الله بهم مكَّـة ، فكانوا اثني عشر ألفـاً .. فلمـا استقبلوا وادي حُنَين[3] ، انحـدروا في وادٍ من أَوديــة تِهــامــة أجـوف حَطُــوط[4] ، في عَمايــة الصبح[5] ، وكانت هـوازن ومن معهـا قـد سبقـوا إلى الـوادي ، فكمنـوا في شِعَـابـه

(١) الوطفاء : الطويلة الشعر ، والزَّمع : جمع زمعة الشَّعر الذي فوق مربط الـدابـة ، وقيل : وهي هنة زائدة وراء الظلف ، وشاة : حمار الوحش ، أو الوعل ، وصدع : الفتى القوي ، والمتوسِّط بين العظيم والحقير عند ابن هشام : ٦١/٤

(٢) البَلَقُ : سواد وبياض ، [اللِّسان : ٢٥/١٠] .

(٣) حنين : واد بجنب ذي المجاز ، بينـه وبين مكـة ثلاث ليـال ، « معجم البلـدان » ، جـ : ٢ ، ص : ٣١٣

(٤) أجوف : متسع .

(٥) عماية الصبح : ظلامه قبل أن يتبين ، وفي ابن هشام : ٦٥/٤ : غبـاشـة الصبح ، وكـذلـك في ابن خلدون : ٤٦/٢

ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيؤوا وأعدوا . شدّت كتائب هوازن على المسلمين شدّة رجل واحد ، فانهزم الناس أجمعون ، لا يلوي أحدٌ على أحد . فقال رسول الله ﷺ عندما رأى ذلك : أين أيُّها الناس ! هلمّ إليّ ! أنا رسولُ الله ، أنا محمّد بن عبد الله !.. ولم يُجْدِ نداؤه ﷺ ، إلاَّ أنّه قد بقيَ مع رسول الله نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته . وممّن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر ، وعمر ، ومن أهل بيته عليٌّ بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وابنُه الفضل ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأيمن بن عبيد ، وأسامة بن زيد بن حارثة[1] .

قال أبو سفيان لما رأى الهزيمة : لاتنتهي هزيمتهم دون البحر .

وصرخ كَلَدةُ بن الحنبل : ألا بطل السِّحْرُ اليوم .

وقال شيبةُ بن عثمان بن أبي طلحة : اليوم أدْرِكُ ثأري ـ وكان أبوه قُتل يوم أُحُد ـ اليوم أقتل محمداً ، قال : فأردت رسولَ الله لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشَّى فؤادي فلم أطقْ ذلك ، وعلمت أنه قد مُنع مني .

قال العباس بن عبد المطلب : إني لمعَ رسول الله ﷺ آخذٌ بِحَكَمَة[2] بغلته البيضاء ، قد شجرتُها بها[3] ، قال : وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت ، قال : ورسول الله ﷺ يقول حين رأى من النَّاس مارأى : أين أيُّها النَّاس ! فلمّا رأى الناس لا يَلْوُون على شيء قال : ياعباس ، اصرخ : يامعشر الأنصار ! ياأصحاب السَّمُرَة ! فناديت : يامعشَر الأنصار ، يامعشر أصحاب السَّمُرة ! قال : فأجابوا : أنْ لبَّيك لبيك ! قال : فيذهبُ الرجل منهم يريد ليَثْني بعيرَه ، فلا يقدر على

(١) البداية والنّهاية : ٣٢٨/٤ ، طبقات ابن سعد : ١٥٧/٢ ، عيون الأثر : ١٩١/٢ ، الطبري : ٧٥/٣ ، الاكتفاء : ١٤٥/١ ، الرّوض الأُنف : ١٤٤/٤

(٢) الحكَمَة « محركة » ماأحاط بالحنك من لجامه ، [اللّسان : ١٤١/١٢] .

(٣) شَجَرها : ضربها بلجامها ، ردّها وكفّها حتى فتحت فاها ، [اللّسان : ٣٩٧/٤] .

ذلك ، فيأخذ دِرْعه فيقذفها في عُنقه ، ويأخذ سيفه وتُرسه ، ثم يقتحم عن بعيره فيخلّي سبيلَه في الناس ، ثم يؤمّ الصوت ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة رجل استقبلوا النَّاس ، فاقتتلوا .. ولما رأى النبي مُجْتَلَد القوم وهم يجتلدون قال : الآن حَمِيَ الوطيس[1] ! وقال ﷺ مرتجزاً :

أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ   أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

فما رُئِيَ في الناس أشدّ منه ﷺ .

قال جابر بن عبد الله : واجتلد الناس ، فوالله ما رجعتْ راجعةُ النَّاس من هزيمتهم حتى وجدوا الأَسارى مكتفين .

وعن أنس قال : كان النَّبيُّ ﷺ يوم حُنَيْن على بغلة بيضاء ، يقال لها دُلْدُل ، فلمَّا انهزم المسلمون ، قال النبي ﷺ لبغلته : إلبِدي[2] دُلْدُل ! فوضعت بطنها على الأَرض ، فأَخذ النَّبيُّ ﷺ حَفْنَةً من تراب ، فرمى بها في وجوههم ، وقال : ﴿ حَمۤ لاَيُنْصَرونَ ﴾ ، فولى المشركون مُدْبرين ، ما ضربَ بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم .

انهزمت ثقيف وهوازن ، ولما وصل فَلُّ ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها . وتبعها النبيُّ والمسلمون ، ودام حصار الطَّائف بضعاً وعشرين ليلة[3] .. أسلمت بعدها ثقيف .

☆ ☆ ☆

(١) الوطيس : التنور يخبز فيه ، وهي هنا المعركة ، لأن الخيل تَطِسُها بحوافرها ، أي تدقها ، [اللّسان : ٢٥٥/٦] . « والخبر في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٠ » .

(٢) البدي : أمر من لبد بالمكان ، إذا لزمه ولم يبرحه ، وفي رواية (اربضي دُلْدُل) : رَبَضَت الدَّابَّةُ والشَّاة والخروف تَرْبِضُ رَبضاً ورُبُوضاً ورِبْضةً ، وهو كالبُروك للإبل ، [اللسان : ١٤٩/٧] .

(٣) وفي ابن هشام : « ويقال : سبع عشرة ليلة » .

☆ لقد انهزم المسلمون في حنين ، بسبب خلل أصاب النفوس ، ألا وهو : الإعجاب بالكثرة ، ونسيان الله عزّ وجلّ . لقد تناست القلوب في حنين مسبّب النّصر ، وأعجبت بالكثرة وأخذت بها ، فكان الدّرس القيّم .

عندما ينسى المؤمن ربَّه ، يركنه لنفسه ، وعندما يُوَثِّق الصلة به ، يأتيه النَّصر منه سبحانه : ﴿ **ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا** ﴾ ، [التوبة : ٢٦]

☆ ☆ ☆

حُنَين .. أول معركة يجتمع بها للمسلمين جيش عدده اثنا عشر ألفاً ، فأعجبتهم كثرتهم . لقد غفلوا عن مسبب النَّصر ، عن منزل النَّصر ، عن مثبت القلوب .. **فأراهم الله عز وجل في أول المعركة نتيجة غفلتهم عنه ، ثم نصر نبيّه** بقلّة مؤمنة ثبتث معه ، والتصقت به ، وتفانت في الجهاد في سبيل الله ، وفي سبيل نصرة رسول الله .

إن الإعجاب بالكثرة ، هزيمة روحية ، سبقت الهزيمة في ميدان المعركة ..

إن معركة حُنَين نتيجة طبيعية للانشغال عن الله .. « والاعتماد على قوة غير قوته ، لتكشف لنا عن حقيقة أُخرى ضمنية ، حقيقة القوى الَّتي تعتمد عليها كل عقيدة ، إن الكثرة العددية ليست بشيء ، إنما هي القلّة العارفة المتَّصلة الثَّابتة المتجرِّدة للعقيدة ، وإنَّ الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين في غمارها ، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها[1] ، تتزلزل أقدامهم ، وترتجف في ساعة الشدة ، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصّفوف ، فوق ماتخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق

---

(١) إشارة إلى ألفين من سكان مكّة المكرّمة ، انضموا إلى جيش النبي ﷺ بعد الفتح مباشرة .

صلتهم بالله ، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النَّصر في الحيـاة ، لقـد قامت كلُّ عقيدة بالصَّفوة المختارة ، لا بـالزَّبـد الـذي يـذهب جفـاء ، ولا بـالهشيم الذي تذروه الرِّياح ! »[1] .

☆ ☆ ☆

لقد أراد الله سبحانه ، لحكمة ارتـآهـا ، أن يسجل التَّـاريخ في كتب السِّيرة هـزيمتين ، ليعلم من سيرث الأَرض من المؤمنين ، أن الخلـل إن يقـع في صفـوف المسلمين ، تنطبق عليهم سنن الله ، ويسجل التَّـاريخ هزيمـة ولـو كان رسـول الله بينهم يقودهم .

ونحن نجزم أن النبي ﷺ لم ينهزم قط ..

في أُحد : رتَّب ﷺ الأُمور بخطَّة عسكريَّة حقَّقت النَّصر ، ولكن الرُّمـاة هم الَّذين اجتهدوا فأخطؤوا فأضاعوا النَّصر .. ومع ذلك لم تحقق قريش ماأرادت من أُحُد ، لقد أرادت قتل رسول الله ، لمحو الرِّسالة الجـديـدة ، لـذلـك كان سؤال أبي سفيان بعد المعركة : « أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمَّداً ؟ » .

وفي حُنَين : لم ينهزم النَّبيُّ ﷺ ، لقد انهزم حديثو العهـد بـالإيمـان ، وانهزم من نسي اللهَ وأعجب بكثرة عـدده ، ونصر الله نبيَّـه بقِلَّـةٍ من أصحـابـه المخلصين ، عندما أنزل سكينتـه عليهم ، وأنزل جنوداً لم يروهـا ، « فوالله مـا رجعتْ راجعـةُ النَّاس من هزيمتهم حتى وجدوا الأَسارى مكتفين » بين يدي رسول الله ﷺ .

ولعلنا نتلمَّس حكمة الله إذا قلنا : **سطرت في السِّيرة الشَّريفة أحداث غايتها أن تبلغ هذه الأُمَّة قمة التَّجرد لله وحده ، وأن تصل غاية الإخلاص لدينه !!**

---

(١) « في ظلال القرآن » ، المجلد : ٤ ، ص : ١٦٦

الاستقلال بالرأي
والإقدام حَتَّى التَّهوّر

☆ قـال عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه لأبي عبيـد بن مسعـود الثُّقفي : « اسمع من أصحاب رسـول الله ﷺ ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهـد مسرعـاً حتَّى تتبيَّن ، ولا يمنعني أنْ أُؤمر سليـط بن قيس إلاَّ سرعتـه إلى الحرب ، وفي التَّسرع إلى الحرب ضياع الأعراب ، فإنـه لا يصلح إلاَّ الرجل المكيث[1] » .

أحجم النَّـاس عن الخروج إلى دولـة الفُرْس ، لمـا في نفـوسهم من عظمتهـا وشوكتها القديمـة ، ولكن المثنَّى بن حـارثـة الشَّيْبَـاني[2] وقف في المـدينـة المنوَّرة وقال : أيُّها الناس ، لا يعظمنَّ عليكم هذا الوجه ، فإنا قـد فتحنـا ريفَ فـارس ، وغلبناهم على خير شِقّي السَّواد[3] وشاطرناهم ، ونِلْنَـا منهم واجترأنـا عليهم ، ولنـا إن شاءَ الله مابعدها .

وكان أوَّل من استجاب للخروج أبو عبيـد بن مسعود الثَّقفي[4] ، فـأمَّره عمر

(١) المكيث : المتأنّي والمتبصر في الأُمور .

(٢) المثنَّى بن حارثـة الشَّيبـاني : أسلم سنـة ٩ هـ ، وفـد على أبي بكر فـأكرمـه وأمَّره على قومـه ، وعاد يَغِيرُ على سواد العراق ، فأمدَّه أبو بكر بخـالـد بن الوليـد فكان بـدء الفتح .. توفي سنـة ١٤ هـ بسبب جراحته التي انتقضت عليه . [الأعلام : ١٥٨/٦] .

(٣) أرض السَّواد ، أرض العراق الجنوبية الواقعة بين دجلة والفرات .

(٤) أبو عُبَيْد بن مسعود بن عَمْرو بن عُمَير الثُّقفي ، والد المختار بن أبي عبيد ، ووالد صفيَّـة امرأة عبد الله بن عمر . أسلم في عهـد الرَّسول ﷺ ، استعملـه عمر سنـة ثلاث عشرة للهجرة ، فسـار بجيش فيه جمـاعـة من أهل بـدر إلى العراق ، وإليـه ينسب الجسر المعروف بجسر أبي عُبَيْـد ، [أسد الغابة : ٢٠٥/٦] .

رضي الله عنه على الجيش ، فسار بالمسلمين إلى أرض العراق ، بعد أن أوصاه عمر أن يسمع من أصحاب رسول الله ويشركهم في الأمر ، وألاَّ يتسرَّع ..

سأل رستم كبيرَ الفرس وأعظمَ قوادهم ، أيُّ العجم أشدُّ على العرب ؟ قالوا : بهمن جاذويه ، فسيَّره رستم ليقابل أبا عبيد .

بعث بهمن جاذويه إلى أَبي عبيد : إما أَن تعبر النَّهر - نهر الفرات - إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، **فنهى النَّاس أبا عبيد عن العبور ، ونهاه سليط أيضاً ، فلج وترك الرَّأي والمشورة ، وقال أبو عبيد : لا يكونون أجرأ على الموت منا . فعبر إليهم على جسر عقده « ابن صلوبا »** للفريقين ، فضاقت الأرض بأهلها ، واقتتلوا ، وكان مع الفرس فيلة ، فلما رأتها خَيْلُ المسلمين جفلت ولم تتقدم نحوها ، ففرَّقت الفيلة خَيْلَ المسلمين ، ورمى من عليها بالنشَّاب ، فاشتد الأَمر على المسلمين ، فترجَّل أبو عبيد والنَّاس ، ثم مشوا إلى الفرس حتى صافحوهم بالسُّيوف ، ولكن الفيلة ما حملت على جماعة إلاَّ دفعتهم ، فقال أبو عبيد : اقطعوا بطائن الفيلة ، واقلبوا عنها أَهلها ، ووثب هو على فيل أَبيض ، فقطع بطانته ، فوقع الَّذين عليه ، وفعل المسلمون مثل ذلك ، فما تركوا فيلاً إلاَّ حطُّوا رحله ، وقتلوا أَصحابه .

وأهوى فيل على أبي عبيد ، فضربه بالسَّيف فقطع خرطومه ، لكن الفيل ضرب أبا عبيد بيده ، فوقع أَبو عبيد ، ووطِئَهُ الفيل وقام عليه ، فلما بصر به النَّاس تحت الفيل ، خشعت أَنفسهم ، وتتابع على أَخذ اللّواء سبعة أنفس من ثقيف ، فقاتلوا حتَّى الشَّهادة . فأَخذ اللّواء المثنَّى بن حارثة الشَّيباني ولكن بعد أَن ذهبت ريح المسلمين ، وانكشف أَمرهم ، وبعد بدء تراجعهم على الجسر إلى ضفة الفرات الغربية .

ولما رأى عبد الله بن مرثد الثَّقفي مالقي أَبُو عبيد وخلفاؤه ، وما

يصنع النّاس ، بادرهم إلى الجسرِ فقطعه ، كي لا يتراجع أحَد .. وقال : ياأيُّها الناس موتوا على ما مات عليه النّاس أمراؤكم ، أو تظفروا .

وحصر الفرس المسلمين إلى الجسر وقد انقطع ، فتواثب المسلمون إلى الفرات ، فغرق من لم يصبر .. ولكن المثنّى وفرساناً من المسلمين حموا من بقي ، وقال المثنّى : « أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ، ولا تدهشوا ، فإنّنا لا نزايل حتّى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تغرقوا أنفسكم »[1] . ونادى المثنّى من عبر فنجا ، فعقدوا الجسر ، وعبر الناس ، وكان آخر من عبر سليط بن قيس .

جرح المثنّى في هذه المعركة ، وخسر المسلمون فيها أربعة آلاف ، ولم يبق مع المثنّى إلاّ ثلاثة آلاف ، وقتل من الفرس في هذه المعركة « معركة الجسر »[2] ستة آلاف ، لكن المعركة كانت خسارة للمسلمين ، وخاصّة بعد قطع الجسر من قبل عبد الله بن مرثد الثّقفي .

وبلغت هذه الهزيمة عمر ، فقال : « اللّهم إنّ كل مسلم في حِلٍّ مني أنَا فئة كل مسلم[3] . يرحم الله أبا عبيد ، لو كان عبر فاعتصم بالخيف ، أو تحيّز إلينا ، ولم يستقل[4] لكنا له فئة » .

لقد اقتص المسلمون من الفرس في معركة جرت بعد زمن قصير على نهر البُوَيْب[5] . بعد أن ندب عمر رضي الله عنه إلى المثنّى ، والتقى المثنّى بجيش

(١) في « البداية والنهاية ٢٨/٧ » قال المثنّى : « أيُّها الناس على هينتكم ، فإنّي واقف على فم الجسر لا أجوزه حتّى لا يبقى منكم أحد ههنا » .

(٢) وقعت سنة ١٣ للهجرة تقريباً .

(٣) ﴿ ياأيُّها الّذينَ آمَنوا إذا لَقِيتُمُ الّذين كَفَروا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدبارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يومئذٍ دُبُرَه إلاّ متحرِّفاً لقتالٍ أو متحيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله ومأْواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِير ﴾ ، [الأنفال ١٥ و ١٦] .

(٤) أي لم يستقل برأيه .

(٥) البُويب : اسم نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ مياهه من نهر الفرات .

الفرس بقيادة « مهران » فقال للمثنَّى : إما أن تعبر إلينا ، وإما أن نعبر إليك ! فقال المثنَّى : اعبروا .. فعبر مهران ومن معه .. وبدأ القتال ، والمثنَّى بحقٍّ كان فارس الميدان ، إن رأى خللاً أصلحه ، كما فعل ببني عجل حيث قال لهم : لا تفضحوا المسلمين اليوم ، فقالوا : نعم ، واعتدلوا .. فضحك المثنَّى فرحاً ، ولما اشتد القتال قال وهو على فرسه في وسط المسلمين : عاداتكم في أمثالهم . انصروا الله ينصركم .

هُزِمَ الفرس وتسارعوا إلى الجسر المعقود فوق البُوَيْب . ولكن المثنَّى سبقهم إليه ، فقطعه ، فتفرَّق الفرس ، فلحقت بهم خيل المسلمين ، وسمي هذا اليوم « يوم الأعشار » ، فقد أحصي مئة رجل مسلم قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس . وأصبح السَّواد بعد البُوَيْب مفتوحاً أمام المثنَّى .

☆ ☆ ☆

في معركة الجسر غلطتان سببتا الهزيمة :

١ ـ مخالفة أبي عُبَيْد لمن معه من أركان الجيش ووجوهه ، لقد نهوه عن العبور فلم ينته ، واستقل برأيه ، لقد عبر أبو عبيد الجسر بشجاعة وإقدام وإيمان وحب للشهادة ، لكنه لم يحسب للمعركة حسابها الكامل ، ولم يدرس أرض المعركة بشكل كافٍ .

إنَّ التَّاريخ ليسجل لأبي عبيد بن مسعود الثَّقفي إقدامه بكل فخار : **« لا يكونوا أجرأ على الموت منا » ، وإنَّه ليسجل أيضاً تعجُّلَه ، وعدم تبصره** بالأُمور قبل إقدامه ، ليحقق النَّصر بأقل خسارة ممكنة .

إنَّ الَّذي نقص أبا عبيد وافتقده قبيل المعركة ؛ نجده كاملاً رائعاً في حياة النُّعمان بن مقرِّن المُزَنِي ، لقد كان النُّعمانُ بحقٍّ **« الرَّجلَ المكيثَ »** ، فحقَّق نصر نهاوند « فتح الفتوح » بأَقل خسائر ممكنة ، لقد صدق النُّعمان في طلب الشَّهادة ،

كما صـدق أبـو عبيـد ، ولكن صـدق النُعمان كان بـلا تهـوُّر أو تسرُّع ، لقــد أشرك أصحابه قبيل المعركة بالرَّأي وأخذ بمـا قـالوا ، ولم يجتهـد مسرعـاً في القتـال حتَّى تبيَّن أمره تماماً ، فلم يُضِعْ أصحابه .

لما سبق .. نجد اسم النُّعمان في مكانه أسمى وأرقى وأبرز من اسم أبي عبيـد على صفحات تاريخنا .

لقـد سجل التَّـاريخ اسم أبي عبيـد بن مسعـود الثَّقفي بعـد معركـة الجسر ، بأحرفٍ تشع إقداماً وحباً للشهادة ، ولكن مع تهوُّر ، وبدون تبصُّر .

والتَّـاريـخ ذاتــه ، سجـل اسم النُّعمان بن مقرِّن المـزني بـأَحرف أبرز وأكبر وأعرض ، بأحرف نطقت إقداماً وحبّاً للشهـادة ، ولكن بلا تهوُّر أو تعجُّل .. بل مع تبيُّن وحزم وتبصُّر في الأُمور ، وحسابٍ دقيقٍ للنَّتائج .

٢ ـ والَّذي زاد غلطـة أبي عبيـدٍ فـداحـة ، غلطـة زادت الغلطـة الأُولى أثراً وخسارة وفاجعة ، إنَّها غلطة عبد الله بن مرثد الثَّقفي ، عندمـا قطع الجسر ، كي لا يرتد أحَد من المسلمين . ولولا ثبات المثنَّى بن حارثـة الشَّيبـاني لهلـك المسلمون عن آخرهم .

إن النَّصر مــع الإقــدام يرافقــه ، ولكن مــع التَّبصُّر والأَنــاة بعيــداً عن التهوُّر .

فهنيئـاً للمثنّى إقـدامـه في الجسر وفي البُوَيْب ، وللنُّعمان إقـدامـه وأنـاتـه وتبصره في نهاوند .

ولله أمر الإقدام حتى التهوُّر ، فإنَّه مهلكة للجند ، وخسارة للمعركة .

المنافقون
« أو الطَّابور الخامس »[1]

★ ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

[الأنفال : ٦٠] .

« معيار الأخبار في تاريخ كُلِّ أُمَّة ، الوثوق من مصادرها ، والنظر في ملاءمتها لسجايا الأشخاص المنسوبة إليهم ، وأخبار التَّاريخ الإسلامي نقلت عن شهود عيان ذكروها لمن جاؤوا بعدهم ، وهؤلاء ردَّدوها لمن بعدهم . وقد اندس بين هؤلاء الرُّواة أُناس من أَصحاب الأَغراض زوَّروا أخباراً على لسان آخرين ، وروَّجوها في الكتب ، إمَّا تقرُّباً لبعض أهل الدُّنيا ، أو تعصُّباً لنزعة يحسبونها من الدِّين » .

---

(١) الطَّابور الخامس : اصطلاح يطلق اليوم ليدل على فئة داخليَّة خبيثة مخرِّبة في مجتمع ما ، عُرفت هذه العبارة لأول مَرَّة عام : ١٩٣٩ م ، عندما نشبت الحرب الأهلية في إسبانية ، الَّتي بدأت عام ١٩٣٦ م حتَّى ١٩٣٩ م ، والَّتي قادها « فرانسيسكو فرانكو » ضد نظام الحكم الجمهوري الَّذي قام عام ١٩٣١ م . ولما سُئِلَ أحد قادة فرانكو وهو « أميليو ميلو » عن خطَّته لمهاجمة العاصمة الإسبانية مدريد قال : سأهاجمها في أربعة طوابير وطابور خامس داخل المدينة مدريد ، ولما سئل أيضاً عن « الطَّابور الخامس » الموجود داخل المدينة كيف دخلها قال : لم أَقصد طابوراً خامساً عسكرياً ، بل فئة من سكان المدينة غايتها تثبيط الهمم ، وترويج الشَّائعات ، وإثارة البلبلة ، وفي ٢٨ آذار ١٩٣٩ م سقطت مدريد بيد أميليو ميلو . وعرف العالم كلّه اصطلاحاً جديداً : « الطابور الخامس » .

من يمحص من هذا المنطلق الأخبار الَّتي وردت عن الخليفة الرَّاشدي الثَّالث عثمان بن عفان رضي الله عنه . يجدها جملة افتراءات كاذبة مضخَّمة ، وتهماً باطلة ، ودسّاً مدروساً ، تَبْتَغي فتنة داخليَّة ، تفرِّق الجماعة الإسلاميَّة ، وتهدف إلى عرقلة مسيرة الإسلام ، وإيقاف انتصاراته الحاسمة .

ولسنا هنا في صدد تفنيد ما اتُّهم به عثمان رضي الله عنه ، فقد جمعها القاضي أبو بكر العربي في كتابه القيِّم : « العواصم من القواصم » ، وتناولها بكفاءة المرحوم الدكتور يوسف العش[1] . ولكننا هنا في صدد اليد الخفيَّة الَّتي أشعلت الفتنة الكبرى ، يد المنافقين الَّذين أظهروا إسلاماً وأضمروا كفراً ، إنهم الَّذين يسمَّون اليوم في عرف السِّياسة : « **الطَّابور الخامس** » .

إن يداً خفيّة حرّكت الفتنة ، وأثارت الثائرين على عثمان ، واستمرت في الفتنة من بعده ، يدٌ .. كانت خلف الثَّائرين في تحريضهم كُلَّما هدأت الأُمور .

إن المستقرئ لحوادث الفتنة يشعر بجلاء بأنَّه كانت هناك يد خفيَّة تحرك الفتنة ، ويزداد شعوره بها حينما يقرأ النُّصوص التَّاريخية الصَّحيحة . يد تلعب ، وتثير النَّعرات ، وتغذِّي الخصومات . إنَّها يد عبد الله بن سبأ ، الصَّفائي الأَصل ، اليهودي الَّذي أظهر الإسلام زمن عثمان رضي الله عنه ، ثم تنقَّل في

---

(١) رجعنا في هذا البحث إلى المصادر التالية :
- تاريخ الطَّبري ، جـ : ٤ وأول الجزء الخامس من ص : ٥ حتى ص : ١٦٠
- الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ : ٣ ، من حوادث سنة خمس وعشرين ص : ٤٥ ، إلى نهاية أحداث سنة أربعين ص : ٢٠٢
- البداية والنِّهاية ، جـ : ٧ ، من ص : ٢٢٣ إلى نهاية الجزء السابع ص : ٣٦٢
- تاريخ ابن خلدون : المجلد الثاني ، جـ : ٢ ، ص : ١٣٨ حتى نهاية الجزء .
- الملل والنِّحل للشهرستاني ، الجزء الأَول ، ص: ١١٤ و ص : ١٧٤
- واعتمدنا بصورة رئيسة على كتاب « الدَّوْلة الأُمويَّة » للمرحوم الدكتور يوسف العش . ومحاضرة للشيخ محي الدين عبد الحميد .

بلدان المسلمين يحاول إضلالهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشَّام . فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشَّام . فأخرجوه حتَّى أتى مصر فاستقرَّ فيها ، وأخذ يقول : العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمَّداً يرجع ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إلى مَعَادٍ** ﴾ ، [القصص : ٨٥] ، محمَّد أحق بالرُّجوع من عيسى .

فقُبِل ذلك عنه ، ووضع بذلك « الرَّجعة » ، ثم قال في مصر بعد ذلك : إنَّه كان ألف نبيٍّ ، ولكل نبيٍّ وَصِيّ ، وكان عليٌّ وصيَّ محمَّد . ثم قال : محمَّد خاتم الأنبياء ، وعليٌّ خاتم الأوصياء . ثمَّ قال : ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه ، وابدؤوا بالطَّعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر تستميلوا النَّاس ، وادعوهم إلى هذا الأمر . فبثَّ دعاته وكاتب من كان استفسده في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السِّر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتبٍ يضعونها في عيوب وُلاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتَّى تناولوا بذلك المدينة المنوَّرة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : إنَّا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلاَّ أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنَّا لفي عافية مما فيه النَّاس .

وفيما سبق يظهر الأُسلوب الخبيث الَّذي اتبعه ابن سبأ ، لقد رفع من منزلة عليٍّ ، وجعل من عثمان مغتصباً ، ليوقع بين اثنين من الصَّحابة الكرام ، أحدهما يظهره مهضوم الحق وهو علي ، ثم حاول ابن سبأ أن يحرك النَّاس على أمرائهم ، فجعل النَّاس يثورون لأصغر الحوادث ، وحضَّ أتباعه على إرسال كتب تحمل أخباراً سيِّئة مفجعة عن مصيرهم إلى بقية الأمصار ، ليخيل إلى كل مصر أن

الأَمصار الأُخرى أسوأ حالاً من حالهم ، وتلقت المدينة كتب الأمصـار جميعـاً تخبر بسوء حالها كل ذلك من أتباع ابن سبأ .

شعر عثمان رضي الله عنه أن أمراً يحاك في الأَمصار ، فأَرسل رسله إليها تحمل كتاباً نصُّه : « أمَّا بعد فإنِّي آخذ العمال بموافاتي في كلِّ موسم ، وقد سلطت الأُمَّة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، فلا يُرفع عليَّ شيءٌ ولا على أحد من عمالي إلاَّ أعطيته ، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعيَّة إلاَّ متروك لهم ، وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً يُشْتَمون ، وآخرين يُضْرَبون ، فيا من ضرب سراً ، وشتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك ، فليواف الموسم ، فليأخذ بحقِّه حيث كان ، منِّي أو من عمَّالي ، أو تصدَّقوا فإنَّ الله يجزي المتصدِّقين » . فلما قرئ في الأَمصار ، بكى النَّاس ، ودعوا لعثمان بالخير ، ولكنهم قالوا : إنَّ الأُمَّة لتمخض بشرٍّ . والواقع .. إنَّها كانت تمخض بشَرٍّ كبير ، فابن سبأ ـ وطابوره الخامس ـ ما زال يغري قلوب النَّاس ، وما زال يعمل عمله .

وجمع ابن سبأ أشياعاً في مصر ، وأشياعاً في الكوفة والبصرة .. هذا الجمع الغفير خرج كله يريد المدينة المنوَّرة . ولكن أَهل مصر يميلون إلى عليٍّ كرم الله وجهه ، وأَهل البصرة يميلون إلى طلحة ، وأَهل الكوفة يميلون إلى الزُّبير . وهذا الاختلاف في الرأي من صنع ابن سبأ ، لتبقى الفتنة قائمة حتى بعد عثمان ، ولذلك إنَّهم لما دخلوا المدينة المنوَّرة ، ذهب أَهل مصر إلى عليٍّ ، وأَهل البصرة إلى طلحة ، وأهل الكوفة إلى الزُّبير .. ولكنهم جميعاً لقوا ردَّاً حاسماً ، بل طرداً وإنكاراً ، وبُعداً وبتراً .

وقابلت الوفودُ عثمان رضي الله عنه ، وعادت وهي راضية عنه ، بعد أن حكَّموا كتاب الله بينهم ، وبينما الوفد المصري في طريقه من المدينة إلى بلاده ، إذ هم براكب يتعرَّض لهم ، ثم يفارقهم ، ثم يرجع إليهم ، ثم يفارقهم ويسبقهم ،

وهذا الرَّاكب أمره عجيب ، إنَّه في مهمَّة سريَّة ، ولكنه لم يتجنَّب النَّاس في طريقه ، كما هو شأن الْمُرْسَلين بأمر خطير هام ، إنَّما كان يقصد أنْ يُعْرَفَ أمْرَه ، فهو الَّذي كان يتعرض لهم ثم يفارقهم ، ثم يرجع إليهم ، ثم يفارقهم ، وكأنَّه يقول : إنَّني مريب ، اسألوني عن مهمتي وعمَّا معي ، وقد تم له ما أراد .

قال له الوفد المصري : مالك ؟ إنَّ لك لأمْراً ، ما شأنك ؟

فقال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر . ففتشوه ، فإذا هم بكتاب على لسان عثمان[1] ، عليه خاتمه إلى عامله بمصر ، أن يصلبهم ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فأقبلوا حتى قدموا المدينة ، فأتوا علياً كرَّم الله وجهه ، فقالوا : ألَم تَرَ إلى عدو الله ؟ إنَّه كتب فينا كذا وكذا ، وإن الله قد أحلَّ دمه ، قم معنا إليه ، قال عليٌّ : والله لا أقوم معكم ، فقالوا : فلم كتبت إلينا ؟ فقال : والله ما كتبت إليكم كتاباً قط ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قال بعضهم إلى بعض : ألهذا تقاتِلون ؟ أو لهذا تغضبون ؟ .

وهنا تنبه علي إلى أمر هام .. الثوار كلٌّ في طريق إلى أمصارهم ، ثم عادوا جميعاً ، فقال علي لهم : ما ردَّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟ قال أهل مصر : أخذنا مع البريد كتاباً موقعاً من عثمان يأمر عامله بقتلنا ، قال علي كرم الله وجهه : كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بخبر الكتاب الْمُرْسل إلى أهل مصر ، وقد سرتم مراحل على طريق بلدكم ؟ هذا والله أمْرٌ أبرم بالمدينة . فقال الثوار : ظنُّوا ما شئتم فلن نحيد عن طلب اعتزال عثمان[2] .

واستقروا بالمدينة ، وانطلقوا حتَّى دخلوا على عثمان ، فقالوا : كتبتَ فينا بكذا وكذا . فقال رضي الله عنه : إنَّما هما اثنتان : أن تقيموا عليَّ رجلين من

---

(١) البداية والنّهاية : ١٧٤/٧

(٢) البداية والنّهاية : ١٧٥/٧

المسلمين ، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كَتَبْتُ ولا أمليت ولا علمت[1] ، وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم .

فعثمان رضي الله عنه يُلْفِتُ النَّظر إلى أنَّ الخاتم ليس خاتمه ، بل هو خاتم منقوش على مثال خاتمه ، وهذا تزوير يمكن حدوثه .

ومما يذكر .. أنه لم يزوَّر على لسان عثمان فقط ، بل كما يقول ابن كثير : قال مسروق لعائشة : هذا - أي مقتل عثمان - عملك ، أنتِ كتبت إلى النَّاس تأمرينهم أن يخرجوا إليه . فقالت رضي الله عنها : لا والذي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء في بيضاء .

إذن .. وراء الفتنة مؤامرة تحاك ، وليس أبطالها الصَّحابة الكرام كعلي وطلحة والزُّبير وعائشة رضي الله عنهم ، بل آخرون منافقون ، لا يظهرون أنفسهم ، إنَّهم « الطَّابور الخامس » الَّذي يعمل من وراء ستار ، يعمل بدهاء وبخطط محكمة مدروسة .

حتَّى أن الأشتر قال يوم حوصر عثمان ، ومنع عنه الماء : لعله قد مكر به وبكم . فوطئه الثَّائرون . إنَّهم أرادوا استمراراً للمؤامرة الَّتي حيكت ضد الإسلام وأهله ، لا ضد عثمان بالذات .

إنَّ عثمان رضي الله عنه - قولاً واحداً - لم يُغَيِّر تحكيم كتاب الله عزَّ وجلَّ بينه وبين وفد مصر ، ولم يرسل أيَّ كتاب إلى عامله في مصر فيه أمر بقتل الخارجين عليه . وهو يستطيع أن يقتل الخارجين بمن معه من الصَّحابة وأبنائهم .

---

(١) إن سؤال علي كرم الله وجهه يكشف قصة الكتاب الذي كان يحمله مرسل يعرض نفسه ليمسك ، وإن المصريين مع الكوفيين مع البصريين كانوا قد اتفقوا على الكتاب الذي دبروه هم قبل افتراقهم !!

ولكنه قال : والله إني لأرجو أن ألقى الله ولم أهرق محجمة[1] من دم المؤمنين .

وخشي الثُّوار قدوم جيش من الأمصار بطلب من عثمان ، فرأوا أنَّه لا ينجيهم ممَّا وقعوا فيه إلاَّ قتل عثمان ، لأنَّه إنْ قتل اشتغل النَّاس به عنهم . فقتلوا عثمان رضي الله عنه .

وهنا نقف لحظات مع الَّذين وصفوا دم عثمان في ذمة عليٍّ .. عليٌّ كرم الله وجهه عندما طلب عثمان الماء ، وحول بيته عشرة آلاف فارس يمنعون عثمان قطرة الماء ، فإذا بعليٍّ يحمل قربتين على ظهر الحسن والحسين ويرسلهما إلى بيت عثمان ، وهو يعلم أنَّ الثوَّار إذا رأوهما سيقتلونهما ، وعندما يصل الماء إلى دار عثمان ويخرج علي معه ، يتدافع الثَّوار معه حتَّى سقطت عمامته عن رأسه ، ويقول كرَّم الله وجهه : لن تصلوا إلى عثمان ما دمتُ حيّاً .

وعندما يقتل عثمان يرى عليٌ الحسنَ والحسينَ . فيقول لهما : كيف تركتما عمَّكما عثمان يُقتَل ؟ قالا : يا أبت إنَّنا أردنا أن ندافع عنه ، ولكنه أبى . قال عليٌّ : كنت أتمنى أن تكونا قد لقيتما الطَّريق الَّتي لقيه ـ أي أن تقتلا معه ـ .

وجاء الثُّوار إلى عليٍّ ليبايعوه على الخلافة ، وهنا تبدأ المرحلة الحاسمة من حياة عليٍّ ، والَّتي يتشكَّك فيها كثيرون ، المرحلة الَّتي يُغْمَزُ بها أيْضاً بعض الصحابة .. المرحلة الَّتي دخلت بها يد اليهوديَّة لهدم الإسلام .

ونحن ما دمنا نتحدث عن عليٍّ كرَّم الله وجهه ، فإنَّنا لا نرغب التعريض بمعاوية ، ولكن الخطأ يجب أنْ يُقال عنه إنَّه خطأ . ويجب أنْ نعرف من تاريخنا ما يحب أعداء الله أن يطعنوا فيه ، ليفرِّقوا المسلمين ، فيلعنون معاوية ، أو يشتمون عليّاً .

---

(١) قارورة يتَّخذها الحجَّام .

جاء إلى عليٍّ قَتَلَةُ عثمان لمبايعته ، ولكنه رفض مبايعتهم ، كيف يبايع قتلة عثمان ؟! ولكن جاءه بعدها وجهاء الصَّحابة ، وأفهموا عليّاً أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة أصبحت بلا خليفة . من شمال إفريقية . إلى حدود الاتحاد السُّوفييتي اليوم ، دولة إسلامية واحدة بلا خليفة . من يحمل المسؤولية .. فحملها عليّ كرَّم الله وجهه ، حملها وهي جريحة ، وهي مهدَّدة بفتنة أحكم الطَّابور الخامس صياغتها ، وأتقن تنفيذها .

وقتلة عثمان .. ماذا يعمل بهم علي ؟ لقد أراد قتلهم ، ولكن كيف يقتلهم وهم المسيطرون على المدينة المنوَّرة ، إنَّهم عشرة آلاف اشتركوا في قتل عثمان ، ومعهم معلمهم ـ قائد الطَّابور الخامس وفكره المحرِّك ـ معهم عبد الله بن سبأ[1] ، فتمهل علي .. حتَّى تهدأ عاصفة الفتنة .

لكن عليّاً .. تسرّع بعزل ولاة الأمصار حين ولي الخلافة ، وقد يكون قد ارتكب خطأ بعزله لمعاوية والي الشَّام . وكان رأي عبد الله بن عبَّاس والمغيرة بن شعبة أنَّ حسن السِّياسة تقتضي ترك الولاة ، ثم يتحيَّن الفرص لعزلهم إنْ شاء ذلك .

بايع كلُّ الصَّحابة علياً ، بما فيهم طلحة والزُّبير ، وهنا جاء بعض أفراد المنافقين ، أفراد الطَّابور الخامس ، إلى طلحة والزُّبير ، وقالوا كيف تبايعون علياً ، وعلي قد أخذ البيعة من قتلة عثمان .. مَنْ يتكلَّم ؟ قتلة عثمان أنفسهم

(١) درسنا في السَّنة الثَّالثة في كليَّة الآداب ـ قسم التاريخ في جامعة دمشق عام ١٩٦٤ م كتاباً وحيداً عن تاريخ العرب والإسلام يحمل عنوان « تاريخ العرب والإسلام » . وقد بحث الدكتور المؤلف الفتنة من ص : ١٢٢ ـ ١٣٦ ، ومما يؤسف له حقّاً ، أنَّ الدكتور المؤلف بحث الفتنة وجعلها بسبب ظروف ماديَّة اقتصاديَّة ، ولم يذكر اسم ابن سبأ « اليهودي » سبب الفتنة ولو مرة واحدة . لقد بحث الفتنة بموضوعيَّة وعلميَّة انطلاقاً من عقيدته ، فإذا به يزيد الطين بلة عندما يقول : « وكان علي وطلحة والزبير على رأس الناقمين على عثمان » ، فيا سبحان الله ، لقد أُوكل الأمر إلى غير أهله !!! فهل ننتظر السَّاعة ؟.

يقولون هذا لطلحة والزبير ، ولماذا يقولون هذا ؟ لأنّهم عرفوا أنَّ توطّد الأمر لعليٍّ كرّم الله وجهه سيقضي عليهم ، سيقتلهم ، سيقتص منهم بسبب دم عثمان . فإذا بقيادة ابن سبأ تضع بذرة الشّقاق بين طلحة والزّبير من جهة ، وعليٍّ من جهة ثانية .

فخرج طلحة والزّبير إلى مكّة المكرّمة ، ليرويا لأُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحادثة ، ويخرجا بها إلى البصرة ، لقتل قتلة عثمان .

وجاء الخبر إلى عليٍّ : إنَّ طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا إلى البصرة . ماذا يريدون ؟ يريدون دم عثمان ، ويتعجّب علي ، وهل أنا ممن قتل عثمان حتى يعادونني ؟

علي كرّم الله وجهه يريد أن يقتل قتلة عثمان ، ولكنَّ الفتنة مشتعلة ، وهو مشغول مع ولاته بعد عزلهم ، وخصوصاً عزل معاوية والي الشّام ، لعل في الأمر خطأ سياسيّاً . ولكن معاوية رفض أن يعزل نفسه حتى ينتقم علي من قتلة عثمان أولاً .

ويرسل علي إلى معاوية : الأمر الآن بيدهم ، إنَّ الموقف في المدينة تحت سيطرتهم . بايع أنت وأصحابك حتّى يستتب الأمر ، ولن أترك أحداً من قتلة عثمان حيّاً .. رفض معاوية بيعة علي .. فخرج علي إليه بجيش

لك الله يا علي .. أنت البريء من كل شيء ، والتهمة تقع عليك ..

ويصل علي إلى العراق ليقابل طلحة والزبير وعائشة ، ويرسل إليهم رسولاً من عنده ليقول : ماذا تريدون ؟ قالوا : نريد قتل قتلة عثمان . قال : وهل لعلي يد في قتل عثمان ؟ قالوا لا ، إذن بايعوه وكونوا معه حتى يستطيع أن يقتل قتلة عثمان . أما تفرّقتم عنه ، وخذلتموه ، وتريدون أن يقتل قتلة عثمان ؟! قالوا :

أرسله إلينا نتصالح . فقرر علي الخروج في فجر ذلك اليوم ليعقد الصلح مع طلحة والزّبير .

فإذا بابن سبأ يقول لطابوره الخامس : يا قوم إنَّ عزّكم في خلطة النّاس فخالطوهم ، وإذا التقى النّاس غداً ، فابدؤوا القتال ، ولا تتركوا للنّاس مجالاً للتّفاهم .

أمّا علي فقال : « إنّا وهم مسلمون » ، « يا أيُّها النّاس املكوا أنفسكم ، وكفُّوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم ، فإنهم إخوانكم ، واصبروا على ما يأتيكم ، وإياكم أن تسبقونا ، فإن المخصوم غداً من خصم اليوم » ، لذلك بات الجميع على الصُّلح .

وبات السّبئيّة قتلة عثمان بشرّ ليلة باتوها قط : وتشاوروا أمرهم ، حتّى اجتمعوا على إنشاب الحرب سِرّاً ، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلوا لإنشاب الحرب انسلالاً ، « خرج مضريُّهم إلى مضرّيهم ، وربيعهم إلى ربيعهم ، ويمانيهم إلى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السّلاح » . فخرج طلحة والزّبير في وجوه النّاس ، فقالا : ما هذا ؟ قالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلاً ، فقالا : قد علمنا أنّ علياً غير منتهٍ حتّى يسفك الدّماء .

وقال علي لما رأى القتال : ما هذا ؟ قال رجل وضعه الثوار عن قصد بجوار علي ليخبره بما يريدون : ما فجئنا إلاّ وقوم منهم بعيننا ، فرددناهم من حيث جاؤوا . وقال علي : لقد علمت أنّ طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء . ونادى علي في الناس : أيها الناس كفوا . ولكن السبئيَّة يخافون أن يجري الصلح ..

ونظر علي كرم الله وجهه فإذا القتل يشتد ، والرؤوس تتطاير ، وقلبه ينزف مع كل قطرة دم ، لأن القاتل والمقتول مسلم ، ماذا يفعل ؟ وما العمل ؟!

وينادي عليّ طلحة ، ويجيب طلحة : نعم يا أبا الحسن . فيجيب أبو الحسن

كرم الله وجهه : جئت بعرس رسول الله ، وخبأت عرسك في المدينة ؟! ماذا تقول لرسول الله إنْ قال لك جئت بزوجتي إلى هذه الأرض ؟ فأحسَّ طلحة بعمله ، وأدار وجهه وخرج من المعسكر ، وبينما هو خارج من المعسكر ، إذ بواحد من أصحاب الفتنة يأخذ سهماً ويقتل طلحة به .

إنَّ الفتنة مخطَّطة ، وإنَّها لمؤامرة تحاك ، يعملون من وراء ستار بقيادة عبد الله بن سبأ ، وما أرادوا لها نهاية .

ويلتقي علي مع الزُّبير في أرض المعركة ، فيقول عليٌّ للزبير : يا زبير كيف تقاتلني وأنت لي ظالم ؟؟! قال الزبير : أنا أظلمك يا أبا الحسن ؟! قال علي : نعم ، ألا تذكر يوم التقيت وإيَّاك في المدينة ، وكان رسول الله ينظر إلينا ، فنظرت إلي يا زبير فضحكت ، فقال لك الرسول لم تضحك يا زبير ، قلت يا رسول الله إنِّي أُحب أبا الحسن ، فقال لك رسول الله : يا زبير ، ستقاتل علياً وأنت له ظالم[1] .

تذكَّر الزُّبير رضي الله عنه هذا الموقف ، فأدار عنان فرسه ، وخرج من المعركة وهو يقول : اللَّهم أستغفرك وأتوب إليك ، ولكن عمرو بن جرموز ، أحد قتلة عثمان لحق به ، وقتله بين مكة والعراق وهو يصلي ، قتله غدراً وعاد إلى العراق : إذن القضيَّة مخطط لها .

أمَّا عائشة رضي الله عنها فقد أرادت إيقاف الحرب ، فأرسلت كعباً يتقدَّم بكتاب الله عزَّ وجلَّ ليدعوهم إليه ، لكن السَّبئيَّة رشقت كعباً رشقاً واحداً ، فقتلوه !! حتى رموا عائشة في هودجها ، فجعلت تنادي : يا بني ، البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عزَّ وجلَّ والحساب ، وتأبى السَّبئيَّة إلاَّ احتداماً

---

(١) وهذه من معجزات المصطفى ﷺ .

واستمراراً للقتال . فقالت : أيُّها النَّاس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم ، وأقبلت تدعو ، وضجَّ أهل البصرة بالدُّعاء ، وسمع علي الدعاء فقال : ما هذه الضَّجة ، فقالوا : عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم . فأقبل علي يدعو ويقول : اللَّهم العن قتلة عثمان وأشياعهم .

وحرّض ابن سبأ أشياعه على قتل عائشة ، فبدؤوا هجوماً على هودجها ، فما كان من علي كرم الله وجهه ، إلاَّ أن أمر أربعين شابّاً من شبان الصَّحابة ، وقال لهم : اضربوا جمل عائشة بسهم ، فإذا سقط فالتفوا حوله ، ولا تدعوا أحداً يصل إليها ، وفعلوا ذلك ، وانتهت المعركة .

انتهت المعركة ، فإذا بعلي بشهامة المؤمن الورع يقول لجنده : إيَّاكم أن تقتلوا جريحاً ، أو تلحقوا مهزوماً ، أو تأخذوا درهماً من أموال إخواننا المسلمين . فإذا أخطؤوا ، فالخطأ مردود ، ليس لكم من أموالهم شيء .

وأخذ عليّ أُمَّ المؤمنين إلى بيته ، ثم جَيَّش معها أربعين جندياً ، وخرج النَّاس لوداع أُمِّ المؤمنين ، وخرج عليٌّ لوداعها ، فقالت : يا بني يعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يَعْتدّن أحدٌ على أحدٍ بشيء بلغه من ذلك ، إنَّه والله ما كان بيني وبين عليٌّ في القديم ، إلاَّ ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنَّه عندي ، على معتبتي ، من الأخيار .

وقال عليٌّ : يا أيُّها النَّاس صَدَقَتْ وبرّت ، ما كان بيني وبينها إلاَّ ذلك ، وإنَّها لزوجة نبيّكم ﷺ في الدُّنيا والآخرة .

وخرجت يوم السَّبت لغرّة رجب سنة ٣٦ هـ ، وشيَّعها عليّ أميالاً ، وسرّح بنيه معها يوماً . وأرسل معها أخاها محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما إلى المدينة المنوّرة ، بحماية أربعين جندياً ، فلما وصلت رضي الله عنها إلى دارها ، علمت أنَّ

الجنود الَّذين كانوا معها كلهم من النِّساء ، اختارهن عليٌّ كرَّم الله وجهه حرمةً لرسول الله ﷺ ، فأطرقت رأسها وقالت :

« لقد أبَى أبو الحسن إلاَّ أنْ يكونَ عليّاً » .

ثم التفت عليٌّ بجيشه إلى الشَّام ، فالتقى بمعاوية في صِفِّين ..

حُجَّة عليٍّ أنَّه إمام تنبغي له الطَّاعة .. ومن مع عليٍّ يرون أنَّ معاوية لا يعدل عليٍّ ، ولا يسوي المسلمون بينه وبين معاوية ، وإذن .. فواجب معاوية أن يبايع عليّاً .

وحجة معاوية ، هي أنَّ علياً إنْ لم يكن قد قتل عثمان ، فهو آوى قتلته ، ولا يرضى معاوية بأقل من أن يسلمه علي قتلة عثمان . فقال علي لمعاوية : فِءْ إلى ظل الله إنْ كنت تريد قتلة عثمان ، فبايع وأنا أُعطيك إياهم ، ولكن بعد أن يستتب الأمر . فقال معاوية : لا أُبايع حتى تقتل قتلة عثمان ، ولا أعترف بك أميراً للمؤمنين .

وهنا أراد عليٌّ حقن دماء المسلمين فقال : يا معاوية لِمَ تقتل المسلمين ؟! اخرج أنت ، وأخرج أنا وجهاً لوجه ، فإن قتلتك كانت لي الخلافة ، وإن قتلتني كانت لك الخلافة . ولكن عمرو بن العاص ، داهية العرب ، ووزير معاوية قال لمعاوية : قد أنصفك أبو الحسن ، وهو يعلم أنَّ معاوية إن خرج لعليٍّ لا يقف معه دقيقة ، فعلي حامل باب خيبر ، وقاتل عمرو بن عبد ودّ العامري ويقف معاوية أمامه ؟!

وفي تلك اللَّيلة تتكرر مأساة الجمل ، ألف رجل من قتلة عثمان ، من الطَّابور الخامس ، يهاجمون جيش معاوية ليلاً .. إنهم يعلمون إذا تم الصلح ، قُتِلُوا .. فإذا بالفتنة المخطط لها تشتعل ثانية ، فيقتل فيها عشرون ألف مسلم ، إنَّه ابن سبأ وطابوره الخامس ، ممن كانوا يحبون ويُخطِّطون هدم الإسلام .

وعندما اقترب انتصار علي ، وقد لاح جليّاً واضحاً ، إذْ بمعاوية يرفع المصاحف ، ماذا في الأمر ؟! فيقول معاوية : نقبل ما في كتاب الله ليحكم بيننا وبينكم .. وما رفع معاوية المصاحف إلاَّ خوفاً من الخسارة .

ويقول علي : ويلكم أنا أعلم ما في كتاب الله ، والله ما رفعتموه إلاَّ خوفاً منّي ، ثم أمر جنده بمتابعة القتال ، ولكن قتلة عثمان عادوا فنقضوا الآن البيعة لعليٍّ ، في لحظة حاسمة تنتهي الفتنة فيها نقضوا بيعتهم ، وقالوا لعليٍّ : يدعوننا إلى كتاب الله ، ونقاتل معك .. إنَّهم لا يريدون أن تنتهي المعركة .. فأفهمهم كرَّم الله وجهه أنَّ رفع القرآن خدعة ، فلم يرتضوا .. لأنَّ علياً إن انتصر انتهت الفرقة ، وتلاشى الخلاف ، ومصيرهم معروف ، إذن فالوقوف موقف الوسط ، الموقف الْمُحَيِّر دون حل حاسم لأحد الطرفين يجعل الفتنة قائمة ، فوقف ابن سبأ ومن معه موقف الوسط وقالوا : لن نقاتل بعد الآن جندَ معاوية ، حتّى يحكم كتاب الله بيننا وبينهم . فقال عليٌّ : تخذلونني في هذه اللّحظة ؟! قالوا : إن لم توقف بقية الجند عن القتال لنقتلنَّك ونلحقك بعثمان[1] !!

أُوقف القتال ، واتفق الطّرفان على التحكيم .

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه الّذي أُرسل كان لا يمثل علياً في رأيه ، صحيح أن أبا موسى اشتهر بالقضاء ، ولكن الأمر هنا أمر توكيل ، وليس قضاء . وأبو موسى نفسه تردّد قبل بيعة علي ، ولم ينضم إليه إلاَّ بعد لأيٍّ ، أضف إلى ذلك عدم دخوله في القتال ، إذْ إنَّه تنحَّى جانباً ، فلا يمكن والحال هذه ، أن يمثل صاحبه .. لذلك أراد عليٌّ عبد الله بن عباس ، ولكن الّذين قتلوا عثمان أرادوا أن لا تنتهي الفتنة ، بل كلما آل الأمر إلى وئام ، فلا بد من بذور خلاف .

---

(١) قالوا حرفيّاً : « لَتَرْجِعَنَّ الأشتر عن قتال المسلمين ، وإلاَّ فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان » الملل والنّحل ، ص : ١١٤

وجاؤوا ليوقِّعوا كتاباً أمام عليٍّ في التَّحكيم . فقال علي : هـذا مـا بـايع عليـه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين بقية المسلمين على أن يقبل ما في كتاب الله . فقال عمرو بن العاص : امحِ كلمة أمير المؤمنين ، قال : لِمَ ؟ قال : لأننا لا نعترف بـك أميراً للمؤمنين .. ومحاها عليٌّ من عقد التحكيم بيده ، وقـال : صـدق رسول الله ، أمحُها وأنا راضٍ[1] .

وبعـد التَّحكيم ، وبعـد حكم أبي موسى وعَمْرو ، حيث خلع أبو مـوسى عليـاً ومعـاويـة ، وثبَّتَ عمرو معـاويـة وخلع عليّـاً .. عـادت الفتنـة بسبب الطَّـابـور الخامس ، حيث خرجوا عن عليٍّ ، خرج قتلة عثمان عن عليٍّ وطـاعتـه ، وأصبحوا الخوارج ، وصـاروا يقـاتلون عليّـاً . لِمَ تقـاتلونـه ؟ قـالوا : لأنَّـه قبل التحكيم ، وقبـل بتحكيم أبي مـوسى وعَمْرو ، ولم يحكِّم القرآن . من رضي بـالتحكيم ؟ ألستم أنتم ؟ قـالـوا : لا . وخرج عليٌّ لقتـالهم بعـد أن عيَّنـوا عليهم عبـد الله بن وهب الراسبي ، فتراجع قسم منهم وانضوا إلى عليٍّ قبيل المعركة . وبقي آخرون في غيهم فقـاتلهم عليٌّ وقتلهم عن بكرة أبيهم إلا ثمـانيـة ، وسُمِّيت مـوقعـةُ عليٍّ هـذه مـع الخوارج باسم موقعة حَروراء[2] .

وعاد عليٌّ إلى الكوفة يُهَيِئ لقتال معاوية ، وخرج بما يقـارب خمسين ألفـاً ، وبعد ثلاثة أيَّام ، صلَّى الفجر ونظر خلفه فإذا بالباقين ألف رجل ، لقـد انسحب كل قتلة عثمان ، وخذَّلوا عنه الناس ، فعاد إلى الكوفـة .. يسـأل الله عزَّ وجلَّ أن ينقذه من أشباه الرِّجال ولا رجال .

---

(١) في صلح الحديبية كتب عليٌّ رضي الله عنـه : « هـذا مـا كاتب عليـه محمَّد رسول الله » ، فقـال سهيـل بن عمرو « منـدوب قريش » : لا تكتب رسـول الله ، فلـو نعلم أنَّـك رسـول الله لم نقاتلك ، فقال النَّبيُّ لعلي « امحه » ، فقال علي : ما أنا بالذي أمحاه ، فمحـاه النَّبيُّ عليـه الصَّلاة والسَّلام بيده ، وأخبر النَّبيُّ علياً أنَّه مثل هذا الموقف سيكون له ، وقد كان .

(٢) حروراء : موضع على ميلين من الكوفـة نزل بـه الخوارج الَّـذين خـالفوا علي بن أبي طـالـب . « معجم البلدان ، جـ : ٢ ، ص : ٢٤٥ » .

وفي يوم من الأيَّام ، وعليٌّ يوقظ النَّاس لصلاة الفجر ، إذا بعبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، يترصَّده ، وبحسام مسموم ، وبضربة غادرة ، قتل ابن ملجم عليّاً .

وفي بيت عليٍّ رأى ابنيه الحسن والحسين فقال : ياحسن ، ياحسين ، هذا ماقاله لي رسول الله ، سَتُقْتَل ياعلي وأنت مظلوم ، ياأبنائي أُوصيكم بتقوى الله ، ولا تغرَّنكم الدُّنيا فإنَّ ظلها زائل ، ونعيمها حائل وللآخرة خير لك من الأُولَى .. ثم يلتفت كرَّم الله وجهه إلى قاتله ابن ملجم ويقول : ياعبد الرحمن ، أَنت الَّذي ضربتني ؟! كم أَحسنتُ إِليك ؟! كم أكرمتك ؟! وبالرغم من أنَّ علياً كان يعرف مصيره المحتَّم ، فقد طلب إلى أولاده بألاَّ يمثِّلوا بالقاتل ، وأن يحاكموه بشرع الإسلام ، فهو يتمسَّك بتفاصيل الشرع الحنيف ، حتَّى آخر ساعة ، أو لحظة في حياته . فقال كرَّم الله وجهه : إيَّاكم أن تمثِّلوا به ، إن شفاني الله إمَّا أُسامحه ، أو أقتص منه وإن مت فاضربوه ضربة واحدة ، واستدار إلى عبد الرحمن بن ملجم وقال : ياعبد الرحمن أُخاصمك بدمي أمام رب العالمين .. وأغمض عينيه ، وفاضت روحه إلى بارئها .

ومهما قيل بحق عليٍّ كرَّم الله وجهه ، بأنَّه كان رجل حرب لا يرى حلَّ الأُمور إلاَّ عن طريق الحرب ، والسِّياسي لا يستعمل الحسام إلاَّ بعد أن يفل الرأي وينقطع ، وأنَّه كان ضعيفاً على قومه ، يخضع لهم ، ولا يسود عليهم ، فإنَّ إخفاق علي كان مرجعه أنَّه راشدي ، يتَّبع سياسة الرَّاشدين في عصر أقلقه ، وجعل الاضطراب في كلِّ جنباته بسبب الطَّابور الخامس .

لقد كان النَّاس في عهد الرَّاشدين على قلب رجل واحد ، وفكر واحد ، ومذهب واحد ، ثم هاهم أُولاء في عصر عليٍّ ينقسمون شيعاً ومذاهبَ ، لاسيا وأَنَّ ابن سبأ قد أدخل فيهم أفكاراً غريبة ، زعم أن علياً حيٌّ لم يمت ، فيه الجزء الإلهي ، ولا يجوز أن يستولى عليه ، وهو الَّذي يجيء في السحاب ، والرَّعد

صوته ، والبرق بسمته ، وإنّه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً[1] .

لقد خذل علياً « المنافقون » ، الّذين كانوا يستعجلون الأُمور ، خذله « الطّابور الخامس » الّذي قاده عبد الله بن سبأ ، لقد كان « مزاوداً » في كلّ موقف ، مهيّئاً لاستمرار الفتنة بعد كلّ تصرف يسبب الصلح أو التقارب بين الفئتين المتحاربتين .

المنافقون .. الذين يبطنون السوء ويظهرون غير ما يبطنون ..

الطّابور الخامس .. الفئة الدّاخلية الخبيثة المخرّبة .. بسببهم كانت معارك عليّ كرّم الله وجهه لا تحسم ، وبسببهم تمّ انتقال الخلافة من عليّ إلى الفرع الأُموي السُّفياني .

فئة داخلية تبطن غير ما تظهر إنْ نظرتَ إلى أفرادها ، كما قال المصطفى ﷺ : « تَحْقُرُ صلاةُ أحدكم في جنب صلاتهم ، وصوم أحدكم في جنب صيامهم ، ولكن لا يجاوز إيمانُهم حَنَاجِرهم وَتَراقِيَهم[2] » ، نعم .. « **إنّهم قومٌ يمرقون من الدِّين ، كما يمرق السَّهم من الرَّمية** » .

إنّ فتنة عثمان عبرة لنا اليوم ، فالقلب السّليم الطّاهر ، إن دخل إليه خبيثُ طويّة ، أو أحد ممن يحبون الطّائفيّة ، أو أحد ممن يخطّط ماكراً لهدم الإيمان

(١) راجع الملل والنّحل ، ص : ١٧٤ ، حتّى أنه في حياة علي كرّم الله وجهه وبسبب ابن سبأ قدم أُناس إلى علي وقالوا : أنتَ ، أنتَ . « أي أنت الله » فزجرهم عليٌّ ، وقال : إن لم ترجعوا عما تقولون لأُحرّقنكم ، ففرحوا بقوله وقالوا : إذن أنتَ أنتَ ، لأنّه لا يعذب بالنّار إلاّ الله ، وحرقهم ولم يرجعوا بسبب ما وضعه ابن سبأ في أذهانهم !!

(٢) التَّرْقُوَتان : الْعَظْمان المشرفان بين ثُغْرة النحر والعاتق ، المفرد ، والجمع : التّراقي ، والمعنى أنّ قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها ، فكأنها لم تجاوز حُلوقهم ، وقيل : المعنى لا يعملون بالقرآن ولا يثابون على قراءته ولا يحصل لهم غير القراءة ، [اللّسان : ترق] .

والإسلام ، أو أحد ممن يرسم خطوات مدروسة لهلاك المسلمين .. أهلك ذلك صاحب القلب السَّليم ، وهزم ذلك الأرواح البريئة ، وفرَّق الكلمة .. وأفرح العدو .. إذ يتحقَّق له ما يريد بفتنة داخلية يسببها « الطَّابور الخامس » ..

لقد كانت الفتنة بما فيها من جَمَلٍ وصِفِّين واستشهادِ عليٍّ .. هزيمة داخليَّة ، هزيمة وحدة الصَّف الدَّاخلي ، وأنتجت فرقةً إلى يومنا هذا .. سُنَّة وشيعة ، كما أنَّها أوقفت انتشار الدَّعوة الإسلامية لمدَّة ليست يسيرة ، كما أزهقت أرواح الأُلوف ، أرواح كان عليها أن تلقى وجه ربِّها وهي تنشر إسلاماً وعدلاً وإخاءً وإنسانيةً ..

لقد كانت الفتنة هزيمة على النِّطاق الدَّاخلي ، سببها « الطَّابور الخامس » .

وفي نهاية هذا البحث نقول : كانِ السَّواد من فئة عبد الله بن سبأ من الأعراب الَّذين ارتدوا أيَّام الصِّدِّيق رضي الله عنه . وهؤلاء الأعراب وصفهم القرآنُ الكريم بقوله : ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٩٨/٩٧] .

هؤلاء الأعراب الَّذين لم تكن لهم صحبة مع رسول الله ﷺ يتلقون من خلالها تزكيةً وعلماً . أمَّا من صحب منهم رسول الله ﷺ فتزكى : ﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٩٩] .

فالأعراب الَّذين وصفهم الله : ﴿ **أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً** ﴾ ، كانوا السَّواد الأعظم من فئة ابن سبأ ، وهم الَّذين ارتدوا أيَّام الصِّدِّيق ، فرفض أن يرسلهم للفتوح ،

لتبقى الفتوح خالصة لله لا شائبة في جند الله ، ولم يتساهل عمر أيضاً إلاَّ بعد حين ، وعثمان بعد أن توسعت رقعة الفتح اضطر إلى إرسالهم والاستعانة بهم ، وهؤلاء الأَعراب يشدهم الطمع ، ويأخذ منهم القول والتهيج ، فأدرك ابن سبأ ذلك ، فأمطرهم بوابل من الكتب المزوَّرة ، يدَّعي أنَّها وردته من عليٍّ وطلحة والزُّبير وعائشة .. حتَّى إذا اجتمعوا بهؤلاء ، لم يجدوا إلاَّ رفضاً وممانعة ، ووجدوا عثمان مقدِّراً للحقوق ، متَّبعاً لشرع الله ، فعادوا إلى الأَمصار راضين ، لكن زعيم الطَّابور الخامس هيَّأ العودة .. واستغلهم أَحسن استغلال .. فكانت هزيمة على نطاق الصَّف الداخلي ، وكان الانقسام في مذهب الأُمَّة إلى يومنا هذا .. فحذار حذار من « الطَّابور الخامس » !!! ففيه هلاك الأُمَّة .

قلوب الناس مَعَك وَسيوفهم مَعَ بني أمية

☆ ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . [يونس : ٤١]

رأى الحسن بن علي رضي الله عنه أنَّه لا ينبغي له أن يثق بمن حوله من أصحابٍ أو من جموع ، فقد خبرهم وعرفهم بما قاساه والده كرَّم الله وجهه منهم ، وهو في الوقت نفسه يكره قتلة عثمان ، فقد حاربهم يوم حصارهم لدار عثمان ، فآثر أن يترك الخلافة على أن يبتلى بهم .

ومنذ بيعة الحسن ، ظهر عدم ميله إلى الخلافة ، فقد طفق يشترط على من بايع في العراق بقوله : « **إنّكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت** » . فقرَّر الحسن التنازل لمعاوية ، وسمي عام ٤١ هـ ، عام الجماعة ، لذلك .. يعتبر الحسن بن علي ركناً للتَّفاهم والجماعة ، لقد جمع المسلمين على خليفة واحد ، بعد فرقة واختلاف . على أنَّ « عام الجماعة » ، وانتقال الخلافة إلى

---

(١) إن مصادر هذا البحث كثيرة جداً ، وهي مصادر متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض ، واعتمدنا هنا تاريخ الطبري ، الجزء الخامس ، صفحة ٤٣٧ ومابعدها ، ويمكن الرُّجوع أيضاً إلى :
☆ البداية والنهايَّة ، جـ : ٨ ، ص : ١٤٩ ومابعدها .
☆ الكامل في التاريخ ، جـ : ٣ ، ص : ٢٦٦ ومابعدها .
☆ تاريخ ابن خلدون ، المجلد : ٣ ، ص : ٢١ ومابعدها .
☆ الدّولة الأُمويّة ، ص : ١٥٥ ومابعدها .

الأمويين ، لم يقض على كل المشكلات ، إنّ روح الخلافة الراشدية استمرت عند كبار الصَّحابة العلماء في شكلها الحقيقي متصدّية معارضة .

كما أسَّس معاوية نظام الوراثة بولاية العهد ، وذلك تقليد استنّه لعلّه يمنع الخلاف ، ويحقن الدماء ، إلاَّ أنَّه تقليد يمنع الأصلح ، ويعطي الأمر لغير اللائق .

ومات معاوية في رجب سنة ٦٠ للهجرة ، فخلفه ابنه يزيد ، فظهر معارضون أنكروا البيعة ليزيد ، وعلى رأسهم : الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزُّبير ، وعبد الله بن عمر .

كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة عامله على المدينة المنوّرة ، أن يأخذ له البيعة من هؤلاء النفر : **« أما بعد ، فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزُّبير بالبيعة أخذاً شديداً ، ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسَّلام »** .

فبايع عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وأبَى عبد الله بن الزبير وسار إلى مكَّة المكرَّمة ، واستعاذ بالبيت العتيق ، كما أبَى الحسين بن علي وتوجَّه إلى مكَّة أيضاً .

وسمع أهل الكوفة بمغادرة الحسين إلى مكَّة المكرَّمة ، فطفقوا يرسلون إليه كتبهم ، يعلمونه فيها أنَّهم لم يلتزموا الطاعة ليزيد ، ولا لأميرهم في بلدهم ، وأنَّهم بحاجة إليه ، فليحضر إليهم ليبايعوه : **« إنَّا قد حبسنا أنفسنا عليك ، فاقدم علينا »** ، ومما كتبوه أيضاً : **« بسم الله الرحمن الرَّحيم ، لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أمَّا بعد ، فحيَّهلا ، فإنَّ النَّاس ينتظرونك ، ولا رأي لهم في غيرك ، فالعجلَ العجل ، والسَّلام عليك »** ... وتكاثرت الكتب

على الحسين حتّى بلغت وِقْرَ بعير[1] ، وكان منها أيضاً : « أما بعد ، فقد اخضرّ الجَناب[2] ، وأينعت الثمار ، وطَمَّت الجِمام[3] ، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجنَّد ، والسَّلام عليك » .

وتلاقت الرُّسل عند الحسين ، وكان آخر من جاءه من العراق : هانئ بن هانئ السَّبيعي ، وسعيد بن عبد الله الحنفي ، وكان آخر الرُّسل ، فكتب الحسين إلى أهل الكوفة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين ، أمَّا بعد ، فإنَّ هانئاً وسعيداً قَدِمَا عليَّ بكتبكم ، وكانا آخر من قدم عليَّ من رسلكم ، وقد فهمت كلّ الَّذي أقصصتم وذكرتم ، ومقالة جُلّكم : إنَّه ليس علينا إمام ، فأَقْبِل لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق . وقد بعثتُ إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي ، وأمرتُهُ أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إليَّ أنَّه قد أجمع رأي مَلَئكم وذوي الفضل والحِجَى منكم على مثل ما قدمتْ عليَّ رُسُلكم ، وقرأتُ في كتبكم ، أَقدم عليكم وَشيكاً إن شاء الله ، فلَعَمري ماالإمام إلاَّ العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسَهُ على ذات الله ، والسَّلام » .

وبعث الحسين ابن عَمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ، وقال له : « سِرْ إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إليَّ ، فإن كان حَقّاً خرجنا إليهم » . فخرج مسلم حتى قدم الكوفة ، واستطلع الأمر ، فكتب إلى الحسين : « أمَّا بعد ، فإنَّ الرَّائد

---

(١) الوِقْرُ : الثِّقل يحمل على ظهر أو على رأس ، وقيل : الوقر الحمل الثقيل ، وأكثر ما استعمل الوِقْرُ في حِمل البغل والحمار ، والوَسْقُ في حمل البعير ، والمراد هنا : حِمْل بعير ، [اللّسان : وقر] .

(٢) الجَناب : بالفتح والجانبُ : النَّاحية والفنَاء ، وماقَرُبَ من مَحلَّة القوم ، [اللسان : جنب] .

(٣) طمَّت : طمَّ الماءُ يَطِمُّ طمّاً وطُمُوماً ، عَلاَ وغَمَر ، وكلُّ ما كَثُر وعَلاَ حتّى غلب فقد طَمَّ يطِمُّ ، وطَمَّ الشيء يَطُمُّه طَمّاً : غمره ، [اللّسان : طمم] . والجَمامُ والجِمام والجُمام والجَمَمُ : الكَيْل إلى رأس المكيال ، [اللسان : جمم] .

لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجّلِ الاقبالَ حين يأتيك كتابي ، فإنّ الناس كلّهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هَوىً والسَّلام » .

علم يزيد بأمر مسلم بن عقيل فأمر عبد الله بن زياد واليه على البصرة أن يطلب مسلماً ويقتله ، فقدم ابن زياد الكوفة في وجوه أهل البصرة ، واستطاعت عيونه الإمساك بابن عقيل ، وبكى ابن عقيل وهو في طريقه لابن زياد ، فسئل عما يبكيه فقال : « أبكي لأهلي المقبلين إليّ ، أبكي لحسين وآل الحسين » . كما أوصى ابن عقيل عمر بن سعد ، وصية جاء فيها : « إن عَلَيَّ بالكوفة دَيْناً استدنته منذ قدمتُ الكوفةَ ، سبع مئة درهم فاقضها عنّي ، وانظر جُثتي فاستوهبها من ابن زياد ، فوارها ، وابعث إلى حسين مَنْ يرده ، فإنّي قد كتبت إليه أُعلمه أنّ النَّاس معه ، ولا أراه إلاَّ مقبلاً » ..

هذا رأي ابن عقيل ، وهذا هو الموقف في العراق ، فما موقف الصحابة وأهل الرأي في مكّة المكرَّمة ؟

قال عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ : لما قدمتْ كتب أهل العراق إلى الحسين وتهيأ للمسير إلى العراق ، أتيتُه فدخلتُ عليه وهو بمكّة ، فحمدتُ الله وأثنيت عليه ، ثم قلت : أمَّا بعد ، فإنّي أتيتك بابن عم لحاجة أُريد ذكرَها لك نصيحة ، فإن كنتَ تستنصحني وإلاَّ كففتُ عما أُريد أن أقول ، فقال : قل ، فوالله ماأظنك بسيئ الرَّأي ، ولا هوٍ للقبيح من الأمر والفعل[1] ، قال : قلت له : إنّه قد بلغني أنّك تريد المسير إلى العراق ، وإنّي مشفقٌ عليك من مسيرك ، إنّك تأتي بلداً فيه عماله وأُمرؤه ، ومعهم بيوتُ الأَموال ، وإنّما النَّاس عبيدٌ لهذا الدِّرهم والدِّينار **ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ،**

---

(١) هذا في الطبري : وفي ابن الأثير : « فوالله ماستغشك، وماأظنك بشيء من الهوى » .

ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه ، فقال الحسين : جزاك الله خيراً ياابن عمّ ، فقد والله علمتُ أنَّك مشيتَ بنُصح ، وتكلَّمت بعقل ، ومهما يُقضَ من أمر يكن . أَخذت برأيك أو تركتُه ، فأنت عندي أَحمدُ مُشيرٍ ، وأَنصحَ ناصح .

وقال عبد الله بن عباس للحسين : ياابن عمّ ، إنَّك قد أرجف النـاسُ أنَّك سائر إلى العراق ، فبيِّن لي ماأنت صانع ؟ قال الحسين : إنِّي قد أجمعتُ المسير في أحد يومَيَّ هذين إن شاء الله تعالى ، فقال له ابن عبّاس ، فإنِّي أُعيذك بالله من ذلك ! أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرَهم ، وضبطوا بلادهم ، ونَفَوْا عَدُوَّهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْك إليهم وأميرُهم عليهم قاهر لهم ، وعمّاله تَجبي بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولاآمن عليك أن يغرُّوك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد النَّاس عليك ، فقال له الحسين : وإنِّي أستخير الله وأنظر ما يكون .

ثم عاد عبد الله بن عباس ليقول للحسين : ياابن عمّ إنِّي لاأتصبَّر ولاأصبر ، إنِّي أتخوّف عليكَ في هذا الوجه الهلاكَ ، والاستئصال ، إنَّ أهلَ العراق قوم غُدُر ، فلا تقربنَّهم ، أقم بهذا البلد فإنَّك سيد أَهل الحجاز ، فإنْ كان أَهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، فإن أبيتَ إلاَّ أن تَخرج فسر إلى اليمن فإنَّ بها حصوناً وشعاباً ، وهي أَرضٌ عريضة طويلة ، ولأَبيك بها شيعة ، وأنت عن النَّاس في عُزْلة ، فتكتب إلى النَّاس وترسل ، وتبث دُعاتك ، فإنِّي أَرجو أَن يأتيكَ عند ذلك الَّذي تحبُّ في عافية ، فقال له الحسين : ياابن عمّ ، إنِّي والله لأعلم أنَّك ناصحٌ مشْفِق ، ولكني قد أَزمعت على المسير ، فقال له ابن عباس : فإن كنتَ سائراً فلا تسرْ بنسائك وصبْيَتِك ، فوالله إنِّي لخائف أن تُقتَل كما قُتِل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه ، ثم قال ابن عباس : لقد أقررتَ عينَ ابنِ الزبير بتخلِّيكَ إياه الحِجازَ والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك ، والله الذي لاإله إلاَّ هو لو أعلم أنَّك إذا أخذتُ

بشعرك وناصيتك حتى يجتمعَ عليَّ وعليك النَّاس أطعتني لفعلتُ ذلك .

ولقي الحسين رضي الله عنه الفرزدق بن غالب الشَّاعر ، فقال الفرزدق : أعطاك الله سُؤلكَ وأمَّلك فيما تحب ، فقال له الحسين : بَيِّنْ لنا نبأ النَّاس خلفك[1] .

فقال له الفرزدق : من الخبير سألتَ ، **قُلوبُ النَّاس معك ، وسيوفهم مع بني أُميَّة** ، والقضاء ينزل من السَّماء ، والله يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربُّنا في شأن ، إن نزل القضاء بما تحب فتحمد الله على نَعمائه ، وهو المستعان على أداء الشُّكر ، وإن حال القضاء دون الرَّجاء ، فلم يَعتدِ من كان الحقُّ نيته ، والتقوى سريرته .

ولما خرج الحسين من مكَّة المكَّرمة كتب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قائلاً له : « أمَّا بعد ، فإني أسألك بالله لمَّا انصرفت حين تنظر في كتابي ، فإنِّي مُشفِقٌ عليك من الوجه الَّذي توجهت له أن يكون فيه هلاكُكَ واستئصالُ أهل بيتك ، إن هلكت اليومَ طفئ نورُ الأرض ، فإنَّك عَلَمُ المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل فإنِّي في أثر الكتاب والسَّلام » .

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، عامل يزيد على مكَّة ، فكلَّمه ، وقال : اكتبْ إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان ، وتمنِّيه فيه البر والصِّلة ، وتوثق في كتابك ، وتسأله الرُّجوع لعلَّه يطمئن إلى ذلك فيرجع ، فقال عمرو بن سعيد : اكتب ماشئت وأتني به حتى أختمه ، فكتب عبد الله بن

---

(١) كان الفرزدق آتياً من العراق ، ولقي الحسين في مكان اسمه « الصِّفاح » وهو موضع بين حُنَين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكَّة من مشاش ، وقال الفرزدق في هذه المناسبة :

لقيت الحسين بأرض الصِّفاح عليه اليلامق والدرق

[معجم البلدان ، جـ : ٣ ، ص : ٤١٢] .

جعفر الكتاب ، ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له : اختمه ، وابعثْ بـه مع أخيـك يحيى بن سعيد ، فإنَّه أَحرى أن تطمئن نفسُه إليه ، ويعلم أنَّه الجِدُّ منك ، ففعل .

فلحـق الحسين يحيى وعبـد الله بن جعفر ، فـأقرآه الكتـاب ، وجهـدا بـه ، فاعتذر الحسين وقال : إنِّي رأيتُ رؤيا فيها رسول الله ﷺ ، وأُمرت فيهـا بـأمر أنا ماضٍ له ، عَلَيَّ كان أَوْ لِيَ .

أمـا عبـد الله بن الزُّبير فقـد قـال للحسين : مـاأدري مـاتركنـا هؤلاء القوم وكفَّنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، وولاة هذا الأَمر دونهم ! خبِّرني ماتريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : واللهِ لقد حدثتُ نفسي بـإتيـان الكوفـة ، ولقـد كتب إليّ شيعتي بها وأشراف أهلها ، وأستخير الله ، فقال لـه ابن الزبير : أَمَا لو كان لي بهـا مثلُ شيعتك ماعدلتُ بها .. ولكنه عاد فقال : أمَا إنَّك لو أقمتَ بالحجـاز ثمَّ أردتَ هذا الأَمر هـاهنـا مـا خُولفَ عليـك إن شـاء الله . ثم قـام ابن الزُّبير فخرج فقـال الحسين : هـاإنّ هـذا ليس شيء يـؤتـاه من الـدُّنيـا أحب إليـه من أن أخرج من الحجـاز إلى العراق ، وقـد علم أنَّـه ليس لـه في الأمر معي شيء ، وأنَّ النَّـاس لم يعدلوه بي ، فودّ أنِّي خرجت منها لتخلو له .

وقـال ابن الزبير في لقـاء آخر للحسين : إن شئتَ أن تقيم أقمت فـولِّيتَ هـذا الأَمر ، فآزرناك وساعدناك ، ونصحنا لك وبايعناك ، فقـال لـه الحسين : إنَّ أَبي حدَّثني أنَّ بها كبشاً يستحل حرمتها ، فما أُحب أن أكون أنا ذلك الكبش ، فقـال له ابن الزّبير : فأَقِم إن شئتَ وتوليني أنا الأَمر فتطـاع ولاتُعصى ، فقـال الحسين : وماأريد هذا أيضاً[1] .

هكذا كان الموقف في مكَّة المكَّرمـة ، الكلُّ ينصح بعـدم الخروج ، بل إن أبـا سعيد الخدري قال : « غلبني الحسين على الخروج ، وقد قلت له : اتق الله ، والزم

(١) النُّصوص السَّابقة كلها في « الطبري » ، جـ : ٥ ، ص : ٣٨٢ ومابعدها .

بيتك ، ولا تخرج على إمامك » ، وكتبت إليه عمرة بنت عبد الرحمن المحدثة تعظم ما يريد أن يصنعه ، وتأمره بلزوم الجماعة[1] .

ولم يحسِّن الخروجَ إلى الحسين إلاَّ ابن الزُّبير ليخلو له الجو في الحجاز ..

سار الحسين إلى العراق ، وبلغه وهو في طريقه خبر مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل : فأثناه ذلك ، واعتزم العودة إلى مكّة ، لكن إخوة مسلم قالوا : والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل فقال : « لا خير في الحياة بعدكم » .

وفي كربلاء .. كانت الواقعة ، قُتِل رجال الحسين عن بكرة أبيهم ، وهم حوالي اثنين وسبعين رجلاً ، وقتل الحسين معهم ، وانتهت الموقعة بشكل يدعو للأسف والضَّنى .. بتحريض من شَمِر بن ذي الجوشن ، الَّذي أقنع عبيد الله بن زياد بضرورة حسم الموقف .

لقد استشهد الحسين رضي الله عنه ، واستشهد معه رجال أخيار من آل البيت رضوان الله عليهم ، وكانت هزيمة ما زلنا نعيش آثارها . فلماذا هُزِمَ الحسين ؟ ولماذا انهزم من معه ؟

الحقيقة تقول : لم ينهزم الحسين ومن معه ، بل جاهدوا حتى آخر رجل منهم . قال الحُرُّ بن يزيد التيمي وهو في خيله يقابل الحسين[2] : يا حسين ، إنِّي أُذكِّرك الله في نفسك ، فإنِّي أشهد لئن قاتَلْتَ لتُقتلن ، ولئن قُوتِلْتَ لتَهلكنَّ فيما أرى ، فقال له الحسين : أَفبالموت تخوفني ! وهل يعدو بكم الخَطْب أن تقتلوني ! ما أدري ما أقول لك ! ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ، ولقيه وهو يريد نُصرةَ رسول الله ﷺ ، فقال له ، أين تذهب ؟ فإنَّك مقتول فقال :

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ، جـ : ٢ ، ص : ٣٤٢/٣٤٣

(٢) كان الحر مكلفاً بمراقبة الحسين حتّى يأتي أمر ابن زياد أو يزيد .

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى　　إذا ما نَوَى حقّاً وجاهدَ مسلما
وواسى رجالاً صالحين بنفسه　　وخالف مَثْبُوراً وفَارَق مُجْرِما
فإن عِشْتُ لم أندم وإن مت لم أُلَم　　كَفَى بك ذُلاًّ أن يعيش وترغما[1]

لم تنقص الحسين ومن معه شجاعة ، فما بال ابن زياد ينتصر ؟

إن كثرةَ عدد جيش ابن زياد من عوامل النَّصر .. لقد واجه الحسين رضي الله عنه باثنين وسبعين رجلاً ، أكثر من أربعة آلاف من أهل الكوفة .

أمَّا الَّذي جعل هذه الفئة القليلة تقتل ، فهو خذلان أهل الكوفة ، وتقاعسهم عن نصرة الحسين ، وتنكرهم لمراسلاتهم ووعودهم .. فلنقرأ هذه النُّصوص ، ففيها يتَّضح سبب هزيمة الحسين ، ومنها يظهر سبب انتصار ابن زياد .

قال أبو مخنف : وحدّثني محمد بن قيس أنَّ الحسين أقبل حتَّى إذا بلغ الحاجر من بطن الرُّمَّة بعث قيس بن مُسهِر الصَّيداوي إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم : « بسم الله الرحمن الرَّحيم ، من الحسين بن علي إلى إخوانِه من المؤمنين والمسلمين ، سلامٌ عليكم ، فإنِّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاَّ هو ، أمَّا بعد ، فإنَّ كتابَ مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم ، واجتماع ملئكم على نصرنا ، والطلب بحقِّنا ، فسألتُ الله أن يُحسن لنا الصُّنع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصتُ إليكم من مكَّة يومَ الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدُّوا ، فإنِّي قادم إليكم في أيامي هذه إن شاء الله ، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

فهل نصر الكوفيُّون الحسينَ كما وعدوه !!

---

(١) الأبيات في الجزء : ٥ ، ص : ٤٠٤ من الطبري ، وبعضها في ابن الأثير .

قال سعد بن عبيدة : إنَّ أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التل يبكون ويقولون : **اللهم أنزل نصرك ، فقلت : ياأعداء الله ، ألا تنزلون فتنصرونه !!**

وقال عبد الله بن سُليم ، والمذري بن المشعل الأسديّان للحسين قبيل وصوله الكوفة : نَنشُدك الله في نفسك وأهل بيتك إلاَّ انصرفتَ من مكانك هذا ، **فإنَّه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بل نتخوف أن تكون عليك !**

كما جاء الحسين وهو بزُبالة[1] كتابٌ من بعض رجاله وأقربائه جاء فيه : « بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، أمَّا بعد ، فإنَّه قد أتانا خبر فظيع ، قُتل مُسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبد الله بن بُقْطُر ، **وقد خذلتنا شيعتنا** ، **فمن أحبَّ منكم الانصراف فلينصرف** » .

قال لَوْذان أحد بني عكرمةإن أحدَ عمومته سأل الحسين رضي الله عنه : أين تريد ؟ فحدَّثه ، فقال له : إنِّي أَنشدُك الله لما انصرفت ، **فوالله لا تقدم إلاَّ على الأسنة وحد السُّيوف ، فإن هؤلاء الَّذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ، ووطؤوا لك الأشياء ، فقدمت عليهم كان ذلك رأيا** ، فأمَّا على هذه الحال الَّتي تذكرها فإنِّي لا أرى لك أن تفعل .

قال الحسين رضي الله عنه لأهل الكوفة : « أيُّها الناس ، إنَّها معذرة إلى الله عزَّ وجَّل وإليكم ، إنِّي لم آتكم حتَّى أتتني كُتُبكم ، وقدمتْ رُسُلكم أن اقدمْ علينا ، فإنَّه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى ، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، فإن تُعطوني ماأطمئنُّ إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصرَكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الَّذي أقبلتُ منه إليكم » .

---

(١) زبالة : منزل بطريق مكَّة من الكوفة ، وهي قرية عامرة فيها حصن وجامع لبني أسد ، قالوا : سميت زبالة بزبلها الماء ، أي بضبطها له ، وأخذها منه . « معجم البلدان ، جـ : ٣ ، ص : ١٢٩ » .

فماذا كان جوابهم .. لاشيء .. **سكتوا جميعاً عنه .**

وقـال الحسين لهم أيضـاً : « .. قـد أتتني كتبكم ، وقـدمت عَلَيَّ رُسُلكم ببيعتكم ، أنّكم لاتُسلموني ولاتَخذلوني ، فإنْ تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، فأنا الحسين بن علي ، وابن فاطمةَ بنت رسول الله ﷺ ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهلكم ، فلكم فيَّ أُسوة ، **وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ، فلعمري ماهي لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغترّ بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم** ، ومَن نكث فإنّما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم ، والسّلام عليكم ورحمة الله بركاته » .

وسأل الحسين نفراً قدموا من الكوفة : أخبروني خبر الناس وراءكم . فقالوا : أمّا أشراف النّاس فقد أعظِمتْ رِشوتهم ، ومُلئت غرَائرهم ، يُستمال ودُّهم ، ويستخلص به نصيحتهم ، فهم ألْبٌ واحدٌ عليك ، وأما سائر الناس بعد ، **فإنّ أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك .**

حتّى أنّهم أنكروا كتبهم إلى الحسين ، وقد كانت معه في خُرْجين يحملها حيث سار ، وحتّى أن عمر بن سعد بعث إلى الحسين رضي الله عنه عَـزْرةَ بنَ قيس فقال : ائته فسله ماالّذي جاء به ؟ وماذا يريد ؟ وكان عزرة ممن كتب إلى الحسين ، فاستحيا منه أن يأتيه ، فعرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلُّهم أبى وكره مقابلة الحسين ..

☆ ☆ ☆

لقد استشهد الحسين رضي الله عنه لخذلان أهل العراق له .. قلوبهم مع الحسين ، وسيوفهم مع بني أُمية ، أفئدتهم تهوي إلى الحسين ، وسيوفهم مشهورة عليه .. وأرسل رأس الحسين مع أهله إلى يزيد ، وفيهم ابنه علي ، طفل يكاد يبلغ مبلغ الرِّجال .. ولما رأى يزيد الحسين وأهله ، دمعت عيناه وقال : قد

كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية « عبيد الله بن زياد » ، أما والله لو أنّي صاحبه « يقصد الحسين » لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين .

ثم أدخل يزيد أهل بيت الحسين إلى حرمه ، فتلقاهم نساء يزيد بالبكاء الشَّديد ، وأقاموا المناحة على الحسين ثلاثة أيَّام ، وكان يزيد لا يتناول طعاماً إلاَّ دعا علي بن الحسين إليه . ثم سرّح يزيدُ عليَّ بن الحسين وأهله إلى المدينة المنوَّرة ، وأمر بحسن خدمتهم في الطريق ، واستمر يوصي خيراً بعلي حتَّى آخر خلافته .

رحم الله الحسين ، لقد أظهر إيماناً كاملاً بقضاء الله عزَّ وجلَّ وقدره ، وصبراً واحتساباً وشجاعةً يندر أمثالها . ورحم أهل بيته وأصحابه ، لقد أبدوا النَّصر للحسين ، والمواساة له بالنفس ، وكراهية الحياة بعده ، لقد قاتلوا بين يديه عن بصيرة مالم يشاهد مثله .

ولن ينفع الكوفيين ندمُهُم بعد تنكرهم للحسين ومن معه .. لن ينفعهم ندمهم على مافرَّطوا في حقِّ الحسين ، وخذلانهم إياه ، وعدم إغاثتهم له حتَّى قتل بينهم وهم ينظرون .

صحيح أنَّهم شكلوا فرقة سُمِّيت « التَّوَّابُون » بإمرة سليمان بن صُرَد سنة ٦٥ للهجرة ، تابوا مما فعلوا .. وتحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأر الحسين ومقاتلة من قاتله وقتله .. ولكن .. ماذا يفيد الحسين ذلك ؟! وماذا نفع الحسين وآله ندمهم ؟ وماذا عملت توبتهم ؟!!!

ولله أمر من أعطى ثم غدر .. ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾ ، [الكهف : ١٠٣ و ١٠٤] .

الحميَّة الجاهِليَّة

☆ ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [الفتح : ٢٦] .

قام النِّظام القبلي في الجاهليَّة على مبدأ الغزو والنَّهب والثَّأر ، وكانت العصبيَّة القبليَّة ، أو الحميَّة الجاهليَّة ، تفرض مساندة الغازين ومناصرتهم ، والتغنِّي ببطولاتهم وغزواتهم في الأسواق انطلاقاً من مبدأ : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .

وجاء الإسلام لينهي الحميَّة الجاهليَّة ، ويحل أُخُوَّة الدِّين محلها : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ ، [الحُجُرات : ١٠] .

لقد أثارت مجزرة الحسين رضي الله عنه أهل الحجاز ، فحاصر أهل المدينة المنوَّرة بني أُمية في دار مروان بن الحكم ، فأرسلوا كتاباً إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان يستغيثون : إنَّا قد حُصِرْنا في دار مروان بن الحكم ، ومُنِعنا الماء العذب ، ورمينا بالجَبُوب[1] ، فيا غوثاه ياغوثاه .

وما أن قرأ يزيد هذا الكتاب ، حتى ثارت ثائرته ، وأخذته الحميَّة الجاهليَّة وقال : لاخير في العيش بعدهم ، فسيَّر مسلم بن عقبة في اثني عشر ألفاً من الرِّجال ، وأوصاه إنْ كان بنو أُمية قد قتل منهم أحد فجرد السَّيف واقتل المقبل والمدبر ، وأجهز على الجريح ، وانهبها ثلاثاً ، واستوصِ بعلي بن الحسين .

---

(١) الجبُوب : الأرض الغليظة ، (الطبري : ٤٨٢/٥) .

وهي وصيَّة يأباها الإسلام ، وتظهر تعصُّب يزيد لقومه ، إنَّه خليفة المسلمين عامة ، وليس لبني أُميَّة فقط ، وموقفه هذا موقف فتى يتعصَّب لقومه ، لا موقف خليفة لكل المسلمين .

وكانت موقعة الحرَّة ، حيث دافع أهل المدينة المنوَّرة بشجاعة رائعة . وأدُّوا من ضروب البطولة الشَّيء الكثير ، لكنهم غُلبوا على أمرهم ، حين خانهم بنو فزارة ، إذ انقلبوا عليهم ، وأتوهم من خلفهم ، فاضطرب أهل المدينة ثم استسلموا ، وقتل في المعركة من القرشيين والأنصار ثلاث مئة وستة رجال ، وفعل يزيد بالمدينة المنورة مافعل[1] !!



ومات يزيد ، وخلفه ابنه معاوية الثاني ، الَّذي توفي في سنة خلافته ، فهاج عرب الشَّام ، الذين كانوا عصب الدَّولة الأُموية وقوتها ، بفضل تماسكهم ووحدة كلمتهم ، ولكن هذه الوحدة تفككت ، وانحازت اليمنيَّة إلى مروان بن الحكم ، واجتمعت القيسيَّة بزعامة الضحاك بن قيس الفهري بمرج رَاهِط[2] ، وبايعت عبد الله بن الزُّبير .

استطاع مروان بن الحكم أن يهزم الضَّحاك بن قيس في المحرَّم سنة ٦٥ هـ ، وذلك في موقعة مرج رَاهِط ، فأذكت هذه الموقعة نار العصبيَّة ليس في الشام وحدها ، بل في سائر الأمصار ، وظهر النزاع بصورة متصلة بين عرب الشَّمال

---

(١) راجع « الدَّولة الأُمويَّة » للدكتور يوسف العش .

(٢) مرج رَاهِط : بنواحي دمشق ، موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء ، إذا كنت في القَصير طالباً لثنية العُقاب تلقاء حمص فهو على يمينك ، [معجم البلدان : ٢١/٣ و ١٠١/٥] .

وعرب الجنوب ، أو بين اليمانيَّة والقيسيَّة ، وامتد لهيب العصبيَّة إلى أقاصي البلاد الَّتي وصلتها فتوح المسلمين ، على شكل حروب أهلية .

عادت العصبيَّة الجاهليَّة القديمة ، الَّتي قضى الإسلام عليها ، عادت في أشد مظاهرها تغلي كالمرجل ، يشبه شكلها الظَّاهري عهدها في الجاهليَّة ، بالأشعار تارة ، وبالاغتيالات والغزو والنَّهب تارة أخرى .

وتوفي مروان بن الحكم في ١٥ جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ ، فخلفه ابنه عبد الملك ، في دولة تمزقها العصبيَّة القبليَّة الَّتي دأب الإسلام على سحقها ، وأشرفت دولة بني أميَّة على الزوال ، لولا أن أتاح الله لها عبد الملك ، الَّذي يعتبر بحق المؤسِّس الثاني للدولة الأمويَّة ، لما امتاز به من رجاحة العقل ، والقدرة على تصريف الأمور ، فانتشل الدَّولة الأمويَّة من الفوضى ، وأقام صرح مجدها على أسس لم يسبقه من جاء قبله من الخلفاء إليها .

روى المسعودي[1] أنَّ عبد الملك بن مروان سار سنة ٦٦ للهجرة على رأس الجنود الشَّاميَّة لقتال المختار بن أبي عبيد ، وبينما هو في الطريق ، أتاه في إحدى اللَّيالي خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده ، وأتاه في تلك اللَّيلة أيضاً مقتل القائد الَّذي أرسله لحرب عبد الله بن الزُّبير بالمدينة المنوَّرة ، ثم جاءه دخول جند ابن الزبير أرض فلسطين ، ثم جاءه خبر مسير إمبراطور الروم ونزوله المَصِّيصة[2] في طريقه إلى الشَّام ، ثم جاءه أنَّ عبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها ، وأنَّ المسجونين فيها فتحوا السِّجن وخرجوا منه ، وأنَّ خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغيرهما ، إلى آخر ما هنالك من أخبار السُّوء الَّتي تذهب بعقل الحليم ، وتبعث في النفس اليأس والقنوط .

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر : ١٠٦/٣

(٢) المَصِّيصَةُ : مدينة على شاطئ نهر جيحان ، من ثغور الشَّام بين أنطاكية وبلاد الرُّوم ، تقارب طَرَسوس ، [معجم البلدان : ١٤٥/٥] .

كان عبد الملك ـ على الرغم من هذا كله ـ رابط الجأش ، شديد الإيمان بكفايته ومقدرته ، فلم يُرَ في ليلة قبلها أشد ضحكاً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أبسط لساناً ، ولا أثبت جنَاناً من تلك اللّيلة تجلداً وثباتاً . وكان أخطر ما في الأمر ، المختار بن أبي عبيد في العراق ، وعبد الله بن الزُّبير في الحجاز .

استغلَّ المختار بن أبي عبيد ظروفَ العراق ، فدعا السَّبئيَّة إليه ، علماً أن عليّاً كرّم الله وجهه استبعدهم ، ولم يقبل الحسن والحسين بأقوالهم ، فصارت السَّبئيَّة تدعو سراً لتقويض المسلمين وملكهم ، فلجؤوا إلى الموالي وإلى الفرس وقد أعلمهم المختار أنَّه يريد التّسوية بينهم وبين العرب ، بل وأرضاهم بأن تكون الدَّعوة إلى رجل من آل البيت ، له نسب إلى الفرس ، كمحمَّد بن الحنفية ، ذي الأمِّ الفارسيَّة ، فقال المختار : إنَّ محمَّداً بن الحنفية هو المهدي الذي سيملأ الأرض عدلاً ، بعد أن يغلب الكفار ، ويردهم على أعقابهم خاسرين ، إذن كان مخطط المختار .. أنَّه جمع حوله الشِّيعة العرب والسَّبئيَّة الموالي .

وأصبح المختار سيد الكوفة بلا منازع ، وكان باستطاعته ضم البصرة إليه ، لولا أنَّ عبد الله بن الزُّبير شعر بخطره ، واتخذ منه موقفاً حاسماً ، فأرسل أخاه مُصْعَباً ، وكان فتى في مقتبل العمر ، إلاَّ أنه شديد البأس ، سريع في أعماله .. فاستطاع مصعب ، يعاونه الْمُهَلَّب بن أبي صُفْرَة ، أن يهزم المختار ويقتله . وهكذا ساد مصعب في العراق ، ولكن بقيت له متاعبه ، فقد احتوى جيشه على عدد من الشِّيعة الّذين أعمل القتل فيهم عندما كانوا في جيش المختار ، فكانوا يحقدون عليه .

وساد عبد الملك بن مروان في الشّام ، وله متاعبه أيضاً ، لقد أضاع قسماً من جيشه مع ابن زياد وهو يواجه الرُّوم ، لقد استفاد الرُّوم من الصراع بين المسلمين ، واستغلوا الحرب الأهليَّة ، فقوي شأنهم ، وتطاولوا على الحدود الشّمالية

للدولة الأُمويَّة . كما ظهر زفر بن الحارث مع قبيلته القيسيَّة ، يطالب بالثأر من الكلبيَّة بعد معركة مرج رَاهِط ، علماً أنَّ الكلبية تمثل أحسن الرِّجال عند عبد الملك . على أن عبد الملك رجل من الدُّهاة . فماذا عمل حتى استتب له الأَمر في العراق والحجاز والثُّغور ؟

١ ـ كانت رسائله تترى إلى أهل العراق لتفرط عقدهم عن مصعب بن الزُّبير ، في حين كان يجمع هو فرقه ويرتبها .

٢ ـ وهيَّأ الصلح مع الرُّوم ، وأطمعهم بمال يدفعه إليهم ليأمن جانبهم مؤقتاً .

٣ ـ واتفق مع زفر بن الحارث ، فأعطاه الأَمان ، وأَدخله في جماعته .

وسار عبد الملك إلى حرب مصعب ، والتقى الجيشان « بدير الجاثِليق »[1] . واستمالَ عبد الملك قادة مصعب إليه ، لقد أَخذهم بالدَّهاء وبالمال وبالإمارة .. فتفرّق رجال مصعب عنه وأَصبح فإذا هو في الميدان مع عدد قليل من رجاله ، فقاتل معهم حتى هلكوا ، ثم سار عبد الملك إلى الكوفة ودخلها ، فبايعه أَهلها ، كما بايعه أهل البصرة أيضاً ، وجاء إليه المهلب الَّذي كان يحارب الخوارج فبايعه وانضم بجيشه إليه .. وبذلك تمكَّن عبد الملك بن مروان من العراق . وبقي عليه الحجاز وفيه عبد الله بن الزبير متحصّناً في مكَّة ، فأرسل عبدُ الملك لعبد الله بن الزُّبير الحجّاج بن يوسف الثَّقفي ، وأمره أَن يأخذه بالحيلة ، وأَن يفعل معه كما فعل بمصعب ، يراسل جماعته ، ويعطيهم الأَمان ، ويفرِّقهم من حوله .

وضايق الحجّاجُ عبدَ الله بن الزُّبير مضايقة كبيرة ، ورأى أَصحاب ابن

---

(١) دير الجاثِليق : قرب موقع بغداد في غربي الدجلة ، وهو في رأس الحدّ بين السَّواد وأرض تكريت ، [معجم البلدان : ٢/٥٠٣] .

الزُّبير المؤونة ترد من الشّام إلى جيش الحجّاج فأغراهم ذلك فانتقل قسم كبير منهم إلى جيش الحجاج ، وبقي مع ابن الزبير نفر قليل من أصحابه ، وأتى اليوم الذي كان لابد فيه من أحد أمرين :

إمّا أن يستسلم ، وإمّا أن يُقتل .

فدخل على أُمّه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما واستنصحها ، فقالت له فيما قالت : إن كنت ترى أنّك على حقٍّ فمت في سبيل حقك ، فقال : الرّأي ما رأيت ، فخرج ولم يلبس درعاً ، وقاتل حتى قتل ، وبمقتله انتهت السّياسة الرّاشدية ، وانتهت معها سياسة الحجاز وتداعى شأنها .

لقد انتصرت سياسة ابن مروان على سياسة العراق والحجاز ، لقد كان انتصار ابن مروان على ابن الزُّبير انتصار الجيش المنظم ، المحدد هدفه ، على الفوضى .. إذ لم يكن في الحجاز قواعد واضحة مبيّنة ومفصّلة في الحكم .

كما انتصر سخاء عبد الملك بن مروان على حرص عبد الله بن الزُّبير ، لقد كان ابن الزُّبير مع حبّه للرئاسة والإمارة حريصاً جداً على الأموال .

ولقد لعب عبد الملك دور الوسيط بين قيس وأعدائها فيما بعد ، ولم يمل إلى طائفة دون أُخرى ، بل سعى إلى درء الفتنة متخذاً موقف السَّيِّد الَّذي يعاقب الطرفين ويصلح بينهما ، فتسامى فوق العصبيَّة الَّتي سببت الحرب الأهلية ، فهدّأ بذلك الوضع ، وأنهى تحيُّز الدَّولة ـ ولو مؤقتاً ـ إلى أيَّة فئة .

وما كاد عبد الملك ينتهي من حروبه مع ابن الزُّبير ، حتى أسرع في توجيه جيشه إلى حرب الرُّوم ، وبذلك أوقف تطاولهم وأنهاه ، هذا التطاول الَّذي ما كان لقوة في دولة الرُّوم وجيشها ورجالاتها ، بل كان بسبب الخلافات الداخليَّة بين المسلمين ، حتى دفع عبد الملك أتاوة للرُّوم ليأمن جانبهم مؤقتاً . وبعد انتهاء

حرب ابن الزُّبير ، عـادت الرُّوم إلى حجمها الحقيقي ، قزماً أمـام وحـدة الصَّف الـدَّاخلي في دولـة الإسـلام ، فـأوقف عبـد الملـك دفـع المـال إليهم ، وردّهم على أعقـابهم ، حتّى أنّـه أوقف خصـامهم فيا بينهم ، وقضى على دابر الفتن بين صفوفهم .

لقد قضى عبد الملك على الفتنة بحزم ، قال العيني : « **كان يقال معاوية أحلم وعبد الملك أحزم** » .

إنَّ الحرب الأهليَّـة الَّتي قـامت بين القيسيَّـة واليمانيَّـة انهزام داخلي . انهزام في وحـدة الصَّف الـدَّاخلي ، وهـدر لقوى لم توضع في مجـالهـا الصحيح . لقـد توقفت الفتوح عندما أصبح بأس المسلمين بينهم شديداً ، بل تطـاول عليهم عـدوُّهم . ومـا كادت الفتنة تنتهي ، والحرب الأهليَّة تتوقف ، حتَّى وجَّه عبد الملك هـذه القوى إلى الفتوح ، فدكَّت الحصون ، واخترقت البلدان ، وبلغ عبـد الملـك بهـذه القوى ذاتها ، أقصى مـا بلغت إليـه الفتوح الإسلاميـة ، إذا استثنينـا فتوح العثمـانيين في أوربة الشَّرقيَّة . لقـد بلغ السِّنـد ، ومـا وراء النَّهر ، وشمال إفريقيـة ، والقفقـاس وأرمينية ، وبلاد الروم ، والأندلس ...

وعلى الرغم من القيادات المختلفة الَّتي كانت تقود الفتوح ، فإن وحـدة الصَّف رسمت خطوطاً موحدة في السَّير ، وسياسة واضحة مـدروسـة ، وأولهـا السُّرعـة في العمل ، والانتقال من فتوح إلى فتوح آخَر ، لتبليغ رسالة الله عزَّ وجلَّ .

فـالفتوح الرَّائعـة الَّتي كانت أيـام عبـد الملـك والوليـد ، تـأخرت زمنـاً غير يسير ، بسبب الحرب الأهلية ، الَّتي أثارتها العصبيَّة الجاهليَّة .

☆ ☆ ☆

العصبيَّـة في عُرْفِ الإسـلام خروج على شَرع الله تعـالى ، وخروج على دعـوة

توحيد الناس والتآلف بينهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾ [الأنبيـاء : ١٠٧] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ ، [سَبأ : ٢٨] .

والتفكير في القبيلة جرَّ إلى العصبيّة ومجانبة العدل في الحكم كما فعل يزيـد في استباحتـه المـدينـة . كل ذلـك كان لـه الأثر في عودة العصبيّـة الّتي شتّتت القوى وشغلتها عن وجهتها في الفتوح ، فكانت نكسة وهزيمة .

العنصريَّة والعصَبيَّة

☆﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات : ١٣]

سقطت الدَّولة الأُموية سنة ١٣٢ هـ ، وأَرجع المؤرخون أَسباب سقوطها إلى أَسباب عديدة ، منها :

ـ تولية العهد لاثنين ، تلك الخطَّة الَّتي سنَّها مروان بن الحكم ، فظهر التَّنافس بين أَفراد البيت المالك على أثرها[١] . وفي رأينا قد يكون لولاية العهد لاثنين أَثَرٌ خطير على كيان الدَّولة الأُموية أَوصلها إلى نهايتها ، ولاية العهد الَّتي قد توصل إلى الحكم أَحياناً من ليس أَهلاً له ، أضحت أكثر خطراً ووبالاً على كيان الدَّولة ، فسارعت بها إلى الهزيمة .

ـ والرُّوح العصبيَّة هي السَّبب الثَّاني الَّذي جعله المؤرخون من أَسباب سقوط دولة بني أُميَّة وهزيمتها ، تلك الرُّوح الَّتي بُعِثَت بين القبائل العربيَّة عقب وفاة يزيد بن معاوية[٢] ، وهذه الرُّوح أَثبت التَّاريخ أَنَّها تطوى وتنطفئ وتتلاشى عند تطبيق الإسلام كاملاً ، أَي عند العمل به كُلاً ومن كل جوانبه ، وتظهر وتقوى كلما ابتُعِدَ عن الإسلام .

---

(١) خرجت في إِثْره وفي أَثَره أي بعده ، [اللّسان : أثر] .

(٢) في منتصف ربيع الأَوَّل سنة أربع وستين (هجرية) ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص ٢٠٩

فالخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز ، الَّذي كان مسلماً حقّاً في كلّ أحكامه ، وفي كل تصرفاته وأعماله ، أصلح ماأفسده من سبقه من خلفاء بني أُميَّة ، ولذلك قضى على كل ثورة أو حركة مناوئة لمركز الخلافة بعد أن نال رضاء الجميع ، كيف لا .. وهو الذي لم يتعصَّب لقبيلة دون أُخرى ، ولم يُنَصِّب على الأمصار عاملاً إلاَّ لكفايته وإيمانه وعدالته ؟ .

لقد كانت فترة الهدوء الَّتي مرّت بها الدَّولة الأُموية مؤقتة زمن عمر بن عبد العزيز ، إذْ سرعان ماعادت العصبيَّة والعنصريَّة بعده تفتك في جسم الدَّولة الأُمويَّة .

وباعتبار ماسبق ، فإنَّ العصبيَّة كانت سبباً وجيهاً من جملة أسباب سقوط دولة الأُمويين ، وهزيمتها أمام العبَّاسيين .

فقد بدأ التعصُّب للعرب يظهر على الألسنة ، وفي نتاج الفكر ، ولمس الفُرْسُ هذا التعصُّب أيَّام الأُمويين ، عندما لم يساووا بينهم وبين العرب ، كما لمسوا روعة نجاح فكر عمر بن عبد العزيز عندما ساوى بين العرب وغيرهم ، ولكن الحال تبدَّلت بعد عمر بن عبد العزيز . فمن الطبيعي أن يحنق الموالي على الأُمويين ، ومن الطبيعي أنْ يتلمسوا فرصاً للإيقاع بهم ، فلما نشطت الدَّعوة العبَّاسيَّة ، انضموا إليها لينالوا حقوقهم الَّتي هُضمت . ولقد فطن العبَّاسيُّون حقّاً إلى ما يكمن في نفوس الموالي نحو بني أُميَّة ، فاستعانوا بهم في نشر الدَّعوة العبَّاسيَّة في خراسان .

لقد جعل الأُمويون أَهل الشَّام في قمة الهرم ، فعلى كاهلهم قامت الدَّولة ، يليهم العربي غير الشامي في الأمصار ، ثم الموالي في القاعدة ، يليهم الذميُّون .

لذلك .. يمكن القول إنَّ الأُمويين أقاموا دولة إسلامية عربيَّة ، إسلامية الفكر والعقيدة ، عربيَّة العِرْق واللُّغة ، مما سبب تعصُّباً للعرب ، وسبب عداوة الموالي ، وطبعهم بطابع العداء الشَّديد للأُمويين .

فالسَّبب الأعظم ، والعامل الأكبر لزوال حكم بني أُميَّـة ، هو تعصُّبهم للعرب والعربيَّـة ، ونظرتهم إلى المـوالي نظرة ازدراء ، ممـا أيقـظ الفتنـة بين المسلمين ، وبعث روح الشُّعوبيَّة .

ولعل سبب نشوء هذا التعصُّب للعنصر العربي ، ولكل مـا هو عربي ، اعتقـاد العرب أنَّهم أفضل الأُمم ، وفي هذا مخالفة صريحة لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ ، [الحجرات : ١٣] .

والآية الَّتي خـاطبت المؤمنين بـأنَّهم خير الأُمم : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ** ﴾ ، [آل عمران : ١١٠] ، آية وضحت بجلاء متى نكون خير أُمَّة :

١ ـ ﴿ **تَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ** ﴾ .
٢ ـ ﴿ **وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾ .
٣ ـ ﴿ **وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ** ﴾ ..

إنَّهـا شروط ثلاثـة ، وليس من المعروف التعصُّب للعرب واحتقـار المـوالي . وهذا يعني أيضاً أنَّه لا عصبيَّة لعربٍ على موالٍ ، ولا لأُمَّـةٍ على أُخرى بحسب شرع الله وقوانينه ، وبمخالفة هذه القوانين الإلهية الثَّابتـة المنظِّمـة لحيـاة البشر ، تكون الهزيمة ، وقد كانت .

ولم تلبث الرَّايات السُّود ، رايـات العبَّـاسيين أن بـاغتت الرَّايـات البيض ، رايات بني أُميَّة ، وقضت عليهـا ، ويعتبر زوال الرَّايـات البيض ، تحجيـماً للنفوذ العربي ، الَّذي تعصَّب له الأُمويون ، وانحازوا إليه .

بطانة السُّوء

☆ قال ﷺ : « ما استخلف من خليفة إلاّ كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضُّه عليه ، وبطانة تأمره بالشرّ وتحضُّه عليه ، فالمعصوم من عصم الله »[1] .

ولي المعتصمُ الخلافة عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، وكانت أُمّه تركيَّة[2] ، فاعتمد على الأَتراك ، واتخذهم حرساً له ، بل أَسند إليهم مناصب رفيعة في الدَّولة العبَّاسيَّة ، فكان المعتصم أول خليفة عباسي استعان بالأَتراك ، وأَول من أَسند إليهم مناصب الدَّولة بعد أَن جلبهم من سمرقند وفرغانة وغيرها من النَّواحي ، واستكثر المعتصم من الأَتراك ، واتخذ من حسن هندامهم ، وجمال منظرهم وشجاعتهم ، وتمسُّكهم بأَهداب الإسلام سبباً للاعتماد عليهم ، فولاَّهم حراسة قصره ، وقلَّدهم الولايات الكبيرة ، وما لبث أَن تعاظم نفوذهم[3] ، وذُكِرَت أَسماؤهم بالخطب ، ونُقِشَت أَسماؤهم على السكَّة .

ولم يلبث الأَتراك أَن أَصبحوا آفة على أَهل بغداد ، فعانوا من عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً ، حتَّى قال المسعودي : « واستفحل خطرهم حتَّى شكا المعتصم منهم في آخر حياته » .

---

(١) مسند الإمام أَحمد بن حنبل : ٨٨/٣ عن أَبي سعيد الخدري .

(٢) ذكرها المسعودي في مروج الذهب جـ ٤ ، ص ٥٣ باسم مارية ، والطبري جـ ١١ ، ص ٩ ، والسيوطي ص ٣٣٣ باسم ماردة .

(٣) راجع المسعودي في مروجه جـ ٤ ، ص ٥٤ وما بعدها . والسيوطي في تاريخ الخلفاء ص : ٣٣٥ وما بعدها .

وبسبب إيذائهم للعامَّة في بغداد ، وضيقهم بهم ، تحول المعتصم من بغـداد إلى « سُرَّ من رأى » . وكان من قـوة شكيمـة المعتصم أن حـدَّتْ إلى حـدٍّ مـا من نفـوذ الأتراك ، فلما مات سنة ٢٢١ هـ / ٨٤٢ م ، وولي الخلافة بعـده ابنـه الواثق أخـذ الأتراك يتدخلون في أمور الدَّولة ، حتَّى أصبح الواثق مكتوف اليدين ، مسلوب السُّلطـة ، ولما ولي المتوكل الخلافـة من بعـد الواثـق ، حـاول أن يكف أيـديهم ، فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر الَّذي اشترك مع الأتراك في قتل أبيـه ، طوع بنـانهم ، وأصبحت الدَّولة العبَّـاسيَّـة ميـدانـاً للفوضى والـدَّسـائس ، وغـدا في أيـدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله وحبسه وقتله[١] .

وظهور العنصر التُّركي في الدَّولة العبَّاسيَّة ، أدى إلى إخمـاد نـار الخصومـة بين الفرس والعرب ، الفرس الَّذين كان لهم شأنهم في صدر الخلافة العبَّاسيَّة ، وخاصـة أيَّام المأمون ، والعرب الَّذين كان لهم شأنهم في الدَّولة الأُمويَّة ، وأدى كـذلـك إلى إخمـاد العــداء بين العلــويين والعبَّــاسيين ، لأن التُّرك استــأثروا بــالأمر دون الفريقين ، ولم يحفلوا بغيرهم .. ومن هنا بدأ العـامل الرئيس في اضمحلال الـدَّولـة العبَّاسيَّة ، حيث بطانة السُّوء الَّتي أهملت شؤون الأُمَّة ، فظهرت الـدُّول المستقلـة وشبـه المستقلـة في أطراف الـدَّولـة العبَّـاسيَّـة ، كالطـاهريَّـة ، والصَّفَّـاريَّـة ، والسَّـامـانيَّـة ، والغزنويَّـة ، والغـوريَّـة ، والعلـويَّـة بطبرستـان ، والأدارسـة في المغرب ، والأغالبة بتونس ، والفاطميَّة ببلاد المغرب ، والطُّولونيَّـة والإخشيـديـة بمصر ، والزيدية باليمن[٢] ، وإعلان الخلافة في الأندلس[٣] .

☆ ☆ ☆

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي .

(٢) انظر « أطلس التَّاريخ العربي » لمعرفة مواقع ومدد قيام هذه الدويلات وانهيارها .

(٣) كانت من قبل إمـارة ، ثم أعلنت الخـلافـة . لقـد بـدأت الإمـارة عـام ١٣٨ هـ ، وانتهت عـام ٣١٦ هـ ، لتبدأ الخلافة عام ٣١٦ هـ وانتهت عام ٤٠٠ هـ ليبدأ عهد ملوك الطوائف .

ومن أعمال الأتراك في الدَّولة العبَّاسيَّة على سبيل المثال لا الحصر :

اتفاقهم مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل ، فقد دخل عليه خمسة من الأتراك في جوف اللَّيل ، فقتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك في الخامس من شوال سنة ٢٤٧ هـ .

ولما ولي المنتصر صار يشتم شركاءه الأتراك ويقول : هؤلاء قتلة الخلفاء ، فتآمروا عليه ، وهمُّوا به ، فعجزوا عنه لهيبته وفطنته وتحرزه ، فاحتالوا عليه عند مرضه ، برشوة قدموها إلى طبيبه ابن طيفور ، وقدرها ثلاثون ألف دينار ، فأشار الطَّبيب على المنتصر بالْفَصْد[1] ، ففصده بريشة مسمومة فمات[2] .

ولما مات المنتصر اجتمع الأتراك وتشاوروا ، ومما قالوه : متى وليتم أحداً من أولاد المتوكِّل لا يبقى منا باقية ، فقالوا : مالها إلاَّ أحمد بن المعتصم ، فبايعوه باسم « المستعين بالله » ، ثم تنكروا له لما قتل وَصِيفاً وبُغَا ، ونفى باغِرَ التُّركي الَّذي فتك بالمتوكل ، ولم يكن للمستعين مع وَصِيف وبُغَا أمر ، حتَّى قيل في ذلك :

خَلِيفَــةٌ في قَفَصٍ ... بَيْنَ وَصيف وَبُغـا
يَقُـولُ مـا قَـالا لَـهُ ... كَما تَقُـولُ الْبَبَّغـا

ولما تنكَّر له الأتراك خاف منهم ، فترك سامرَّاء إلى بغداد ، فأرسلوا إليه يعتذرون ويظهرون خضوعهم له ، ويسألونه العودة إلى سامرَّاء ، فامتنع ، فبايعوا المعتز بالله ، وخلعوا المستعين .

وذكرت كتب التَّاريخ صراحة أنَّ المعتز كان مستضعفاً مع الأتراك[3] ، ولما لم يجد مالاً في بيت المال يرضي به طلبات وطمع الأتراك ، اجتمعوا على خلعه ،

---

(١) الْفَصْدُ : شَقُّ الْعِرْق ، لاستخراج دمه ، [اللِّسان : فصد] .

(٢) تاريخ الخلفاء ، ص : ٣٥٧

(٣) تاريخ الخلفاء ، ص : ٣٥٨

واتفقوا مع أعداء المعتز ، فانقضوا عليه ، وجروه ، وضربوه بالدبابيس ، وأقاموه في الشمس في يوم صائف ، ثم خلعوه ، وبايعوا المهتدي بالله محمّد بن الواثق ، ثمّ أدخل الأتراك المعتزّ الحَمّام ، فلما اغتسل عطش ، فمنعوه الماء ، ثم خرج ، فسقوه ماء بثلج ، فشربه وسقط ميتاً .

☆ ☆ ☆

وفي عهد المهتدي بالله ، استفحل أمر الأتراك أيضاً ، فكتب إلى بكيال أن يقتل مفلحاً أحد أمراء الأتراك ، وساروا إلى المهتدي وقد أجمعوا على قتله ، فقاتلهم المهتدي مع رجال مغاربة عنده ، وقتل من الأتراك أربعة آلاف ، ولكن الهزيمة حاقت به أخيراً ، فأمسك وعُذّب حتّى مات .

وفي أيام الراضي بالله ، كان بجكم التركي أمير الأمراء ، وقلّده الخليفة إمارة بغداد وخراسان . وكان المتصرف الآمر الناهي بلا قيود .

وأيّام المتّقي بالله ، دارت حروبٌ بين جيشه كخليفة ، وجيش تورون التُّركي ، واضطر الخليفة إلى مصالحته على مضض ، وطلب الأخشيد من المتّقي أن يسير إلى مصر ، وقال له : يا أميرَ المؤمنين ، قد عرفتَ الأتراك وفجورهم وغدرهم ، فالله الله في نفسك ، سِر معي إلى مصر ، فهي لك وتأمن على نفسك ، فلم يقبل المتقي ، وعاد الإخشيد إلى مصر وحده .

ولما التقى بتورون التُّركي ، قبض تورون على المتّقي ومن معه ، ثم سَمَل[1] عينيه ، وأدخله مسمولَ العينين إلى بغداد ، وقد أخذ منه الخاتمَ والبردة والقضيب[2] ، وأحضر تورون عبد الله بن المكتفي وبايعه بالخلافة .

---

(١) سَمْلُ العَيْن : فَقْؤُها ، [اللّسان : سمل] .

(٢) الخاتم والبردة والقضيب : رموز بحوزة القائم بالخلافة يتوارثها الخلفاء .

وأيـام القـائم بـأمر الله ، برز أرسـلان التُّركي المعروف بـالبسـاسيري ، فعظم أمره ، واستفحـل شـأنـه ، حتَّى دعي لـه على المنـابر ، وجبى الأَمـوال ، وخرَّب القرى ، ولم يكن القائم يقطع أَمراً دونه ، ثم علم الخليفة بسوء عقيدته ، وبلغه أَنَّـه عزم على نهب الخلافة والقبض على الخليفة ، فاستنجد الخليفة بأَبي طالب محمَّـد بن مكيـال سلطـان الغز[1] ، المعروف بطغرلبـك ـ وكان بـالرَّي ـ فقـدم طغرلبـك ، وتجمع الأَتراك حول البسـاسيري ، ووقع قتـال بين الخليفـة والبسـاسيري ، وقبض البساسيري على الخليفة وحبسـه ، ولولا طغرلبـك وجيشـه الَّـذي وصل في الوقت المناسب ، لما أُطلق سراحه ، ولما بقي خليفةً في مركزه .

ورغم **بطانة السُّوء** هذه ، استطاع الناصر لدين الله أَحمـد بن المستضيء ، أن يرجع هيبتها ، فكان يرهبه أَهل الهند ومصر ، كما يرهبه أَهل بغداد تماماً ، فأحيـا هيبته الخلافة العبَّاسيَّة الَّتي ماتت هيبتها بموت المعتصم بن الرَّشيـد ، ثم مـاتت من جديد بموت النَّاصر لـدين الله ، وعـادت **بطـانـة السُّوء** لتـدق الإِسفين الأَخير في نعش العبَّـاسيين وفي دولتهم ، فبرزت أَيَّـام المستنصر بـالله أَسماء ، ولمعت أَلقـاب بطـانـة السُّوء : « الـدويـدار والشَّرابي » ، فلمـا مـات المستنصر ، لم يريـا تقليـد الخفاجي أَخا المستنصر ، لما فيه من شهامةٍ وشجاعةٍ وعزيمةٍ ، وطموح في ردِّ التَّتار الَّذين عسكروا وراء نهر جيحون ، لم يريا تقليد الخفاجي الَّـذي كان يقول : لئن وليت لأَعْبُرن بالعسكر نهر جيحون وآخـذ البلاد من أيـدي التتـار وأستـأصلهم . فلما مات المستنصر أَقاما ابنه أَبا أَحمد المستعصم بالله ، لِلِينهِ وضعف رأْيه ، وليكون لهما الأَمر ، وليقضي اللهُ أَمراً كان مفعولاً فيـه هلاك الـدَّولـة العبَّـاسيَّـة ، وهـلاك الأُلوف من أَرواح المسلمين .

خافت **بطانة السُّوء** من طموح الخفاجي ، وآثرت المستعصم للينـه وانقيـاده

---

(١) الْغَز : قبائل من التُّرك ، [موسوعة القرن العشرين : ٦٤/٧] .

ليكون الأمر لها ، وزاد الحال سوءاً أن المستعصم ركن إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرَّافضي ، فأهلك الحرث والنَّسل ، ولعب بالخليفة كيفما أراد ، وراسل التَّتار سِرّاً ، واتَّصل بهم خفيةً ، وناصحهم ، وأطمعهم في المجيء إلى العراق وأخْذِ بغداد ، لإنهاء الخلافة العبَّاسيَّة وليقيم العلقمي خليفة من آلِ علي ، فصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة ، بينما يطالع التَّتار بأخبار الخلافة .

ومما يذكر في هذه الفترة ، أنَّ الصليبيين اتّصلوا بالتتار ، لإيقاع العالم الإسلامي ضمن فكي كماشة ، فهم يزحفون على بلاد الشَّام ومصر من جهة الغرب ، ويشن التَّتار زحفاً من الشَّرق ، وساعد على تحقيق تلك الْخُطَّة زوجة هولاكو المسيحيَّة ، الَّتي حثت زوجها على الزحف شرقاً لتدمير الإسلام .

التَّتار يزحفون إلى مركز الخلافة العباسية ، وشرهم متزايد ، ونارهم تستعر ، والخليفة والنَّاس في غفلة عما يراد بهم بسبب حرص الوزير العلقمي على إزالة الدَّولة العبَّاسيَّة ، ونقلها إلى الطالبيين ، « والرسل في السرِّ بينه وبين التَّتار » ، والمستعصم تائه في لذَّاته ، لا يطلع على الأُمور ، ولا يدري ما يحاك ضده ، وبسبب **حاشية السوء** ، والبطانة العميلة ، لا يعلم المستعصم ما يُبَيَّت له من وزيره ، رأس **البطانة العميلة ، والحاشية السيئة .**

ويجب أن نذكر أن المستنصر والد المستعصم قد استكثر من الجند جداً ، وكان يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم ، متحيِّناً الوقت المناسب لصدِّهم ، ولكن الموت حال بينه وبين ما أراد ، واستخلف المستعصم ، وكان خالياً من الرَّأي والتدبير ، فأشار عليه الوزير العلقمي بتسريح غالبيَّة الجند ، وأقنعه أن مصانعة التَّتار وإكرامهم تفي الحاجة ، وتحقق المقصود ، ففعل المستعصم ذلك ، وركن إلى مشورته .

واستمر الوزير العلقمي بمكاتبة التَّتار ، وأطمعهم في البلاد ، وسهل عليهم

ذلك ، وطلب أن يكون نائبهم ، فوعدوه بذلك ، وقصدوا بغداد . فوصلوها سنة ٦٥٦ هـ ، وهم مئتا ألف يتقدمهم هولاكو ، فخرج إليهم من بقي من عسكر الخليفة ، فهزم العسكر ، وحاصر التتار بغداد ، فأشار العلقمي على المستعصم بمصانعتهم ، وقال له : أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح ، وخرج العلقمي وتوثّق بنفسه منهم ، وعاد إلى الخليفة ليقول : إنّ هولاكو قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الرُّوم في سلطنته ، ولا يريد إلاَّ أن تكون له الطَّاعة ، كما كان أجدادك مع السَّلاطين السَّلجوقيَّة ، وينصرف عنك بجيوشه ، فليجب مولانا إلى هذا ، فإن فيه حقن دماء المسلمين ، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ماتريد ، والرأيُ أن تخرج إليه ، فخرج إليه في جمع من الأعيان ، فأُنزل في خيمة .

ثم دخل الوزير بغداد ، فاستدعى الفقهاء ، والأماثل ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد ، فضُرِبَت أعناقُهم ، وصار كذلك : تخرج طائفة بعد طائفة ، فتضرب أعناقهم ، حتى قتل جميع مَنْ كان فيها من العلماء والأُمراء والحجَّاب والكبار .

ثم مدَّ هولاكو الجسر وعبروا إلى بغداد ، وبذل السيف ، واستمر القتال نحو أربعين يوماً ، فبلغ القتلى أكثر من مليون نسمة بحسب رواية ابن كثير والسيوطي ، ولم يسلم إلاَّ من اختفى في بئر أو قناة ، وقتل الخليفة رفساً وركلاً **بأقدام التّتار ، وحقّ قول الشاعر :**

بَادَتْ وَأَهْلوهَا مَعاً فَبُيُوتُهُمْ ... بِبَقاءِ مَوْلانا الْوَزيرِ خَرابُ

انقضت الخلافة العبَّاسيَّة ، ومات من المسلمين الكثير الكثير بسبب **بطانة السُّوء** ، فكما قال حكيم : « لاظفر مع بغي ، ولا صحة مع نهم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا صداقة مع خب ، ولا شرف مع سوء أدب ، ولا سلامة مع ريبة ، ولا

راحـة مع حسـد ، ولا ريـاسـة مع غرور وعجب ، ولا صواب مع ترك المشورة ، **ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة أعوان** » .

ولم يتم لبطـانـة السُّوء مـاأرادت ، وذاق العلقمي من التّتـار الـذلّ والهوان ، وذهبت أحلامه وآماله أدراج الرِّياح ، وأقام هولاكو على العراق نُوَّابه ، وكان ابن العلقمي قد حَسَّنَ له أن يقيم خليفةً علوياً ، فلم يوافق ، بل أذله وأهانـه ، فمـات العلقمي كمداً وغماً .

ومع أن هذا العذاب العظيم ، عقاب عادل ، وجزاء مرتقب عاجل للخيـانـة والتآمر ، غير أنَّه هيهات له أن يعادل نتـائج مـاقـدمت خيـانـة **بطـانـة السُّوء** ، متمثِّلة بزعيمها المـدبِّر الوزير العلقمي ، ألا إنَّـه من أكبر العقوبـات والحسرات الَّتي يلقاها الخونة في حياتهم : ضيـاع الآمـال ، وانهيـار الأحلام ، مع الـذلِّ والهوان ، والاحتقار ممن تعاملوا معهم ، فموت حسرةً وكمداً .

الغنيمة سبب الهزيمة

★ « رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم »[1] .

فتح المسلمون الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، فكان فتح إنقاذ لشعب أذلّته الطّبقيّة ، ونخرت جسمه مظالم الاستعباد وكثرة الضرائب ، وذلك بشهادة ول ديورانت : « لم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها كلّه حكماً أكثر حزماً وعدالةً وحريةً مما شهدته في أيّام فاتحيها العرب »[2] .

وتابع المسلمون الفتح في أرض فرنسة وراء جبال « البرينه »[3] ، أيّام عمر بن عبد العزيز ، عندما أقام السّمح بن مالك الخولاني والياً على الأندلس سنة ١٠٠ هـ/ ٧٤٠ م ، وكان رجلاً وثيق الإيمان ، جم النشاط ، فتوغل في فرنسة « بلاد الغال أو غاليا » ، فوصل طولوشة Tolosa ، حيث التقى عندها بدوق اكويتانية « أُودو » ، واشتد القتال بينهما ، واستشهد السّمح في هذه الموقعة في يوم

---

(١) القول لرسل المقوقس بعد عودتهم من زيارة للجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص ، قبيل فتح مصر .

(٢) القول لول ديورانت في كتابه « قصة الحضارة » .

(٣) أو جبال البرانس ، وفي العربيّة : ألبرت ، أو البرتات . والبرانس Pyrenees تعني « الأبواب » ، فسمّيت أيضاً جبال الأبواب ، ويقال لها : الحاجز .

عرفـة من سنـة ١٠٢ هـ ، ولم تستطـع فلـول الجيش الإسـلامي العـودة إلاّ بفضـل الشجاعة الَّتي أبداها عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، الـذي ولي الأنـدلس لفترة وجيزة ، فقـد استبـدل بـه عنبسـة بن سحيم الكلبي ، الـذي تـابع الفتح في فرنسـة ووصل إلى قرقشونـة ، فحـاصرهـا ونزل أهلهـا على شروطـه ، وتعهـدوا برد أسرى المسلمين الَّـذين كانوا في حصن قرقشـونـة ، وتـابـع عنبسـة سيره حتى أدرك مجرى حوض الرُّون ، فـاستولى على أوتون ، ووصل إلى سـانس Sens ، على بعـد ثلاثين كيلو متراً جنوبي باريس . ولو قـدر الله سبحـانـه أن تكون أحوال أهل الأنـدلس على غير مـا كانت عليـه من خلافـات عصبيَّـة ، ومنـازعـات بين العرب والبربر ، لفُتحت أوربة كلُّها .

توفي عنبسة متأثراً بجراح بالغة أصـابتـه في شعبـان ١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م ، أثنـاء فتوحاته في فرنسة ، فخلفه عذرة بن عبـد الله الفهري ، الـذي تـابع الفتح والغزو في فرنسة .

ولما وصل عبد الرحمن الغافقي(١) إلى ولاية الأندلس للمرة الثانيـة ، كان بحق أقدر والٍ وقائد عسكري عرفته الأندلس .

عبر عبد الرحمن الغـافقي جبـال البرينـه في أوائل سنـة ١١٤ هـ ، مع حوالي سبعين ألفـاً من المسلمين بعـد أن احتفـل في بنبلـونــة بـإعـداد حملتـه ، ففتـح عبد الرحمن مدينة آرل ثم بوردو « بُرْدال » ، حيث سجل عبد الرحمن نصراً رائعـاً على الدوق أودو .

أسرع أودو إلى قارله « شارل مارتل » يستنجده ، متناسياً خصومتـه معـه ، فتوحَّدت القوى النَّصرانيَّـة في فرنسـة وخـارجهـا ، للوقوف في وجـه عبـد الرحمن

(١) أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي ، نسبة إلى غـافق ، وهي قبيلة من الأزد ، تابعي من أفذاذ الرجال ، يذكر ابن بشكوال أنه روى عن عبد الله بن عمر .

الغافقي ، فكانت معركة بواتييه « بلاط الشهداء » وانهزم المسلمون ولم يكن الإيمان ينقصهم ، ولم تكن الخبرة تعوز القيادة ، ولكن أسباباً أُخرى كانت تفلُّ من عزيمة الجيش ، فسبَّبت هزيمته .

قال المؤرخون إن السبب في الهزيمة تلك المسافات الشاسعة جداً عن مركز الخلافة في دمشق ، فلا إمدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة . وفي رأينا هذا سبب لا قيمة له ، بدليل انتصار المسلمين في بدء المعركة على أعدائهم الَّذين لمسوا نقطة ضعف المسلمين بعدها مباشرة .

كما عَزَا آخرون سبب الهزيمة إلى ما كان بين العرب والبربر من صراع آنذاك ، وهذا عامل يحسب حسابه ، ينبغي ألاَّ يُهْمَل ، **أمَّا السَّبب المباشر للهزيمة فهو الغنائم .**

الغنائم الَّتي جمعها المسلمون أثناء زحفهم من المدن الَّتي مروا بها قبل المعركة الفاصلة ، فالمراجع متفقة على أنَّ الجيش الإسلامي كان يجر قوافل محملة بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، ولعل تعلق الجند بهذه الغنائم كان كبيراً ، لأنَّهم حملوها معهم حتَّى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا بها جنوباً إلى الأندلس ، حتى يطمئنوا عليها ، وتخلو أيديهم للعمل الجاد في المعركة ، إنَّهم حرصوا عليها ، فكان هذا الحرص العامل الرئيس والأساس لهزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم ، فعرف كيف يستغله لصالحه[1] .

كانت بواتييه « بلاط الشهداء » في أواسط تشرين الأوَّل ٧٣٢ م ، أواخر شعبان ١١٤ هـ ، وتثبت المراجع تفوق المسلمين على أعدائهم في بدء المعركة ، ثم حدث أن اندفعت فرقة من الفرنجة إلى خلف صفوف المسلمين ، حيث أودع المسلمون غنائمهم ، فخشي الكثير منهم أن يستولي الفرنجة على غنائمهم ، فالتفت

---

(١) فجر الأندلس .

بعضهم وعاد إلى الخلف ليبعد الأعداء عنها ، وهنا اضطربت صفوف المسلمين ، واتسعت الثغرة الّتي نفذ منها الفرنجة ، ودار القتال بعنف وقوة ، فزلزل نظام المسلمين ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده ، ويعيد النظام ، أو يصرف الجند عن الهلع على الغنائم فلم يوفق وأصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم ، إذ انهال الفرنجة على المسلمين من كل جانب ، وصبر المسلمون ، حتّى أقبل اللّيل فانتهزوا فرصة حلول الظلام ، وتسلّلوا متراجعين إلى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في ٢٠ تشرين الأول ٧٣٢ م أوائل شهر رمضان ١١٤ هـ .

وفي الصّباح .. وجد الفرنجة مضارب المسلمين خاوية ولكنها تفيض بالغنائم ، فظنوا أنها خدعة ، وظنوا أنّ المسلمين نصبوا شَرَكاً لهم ، فلم يتابعوهم جنوباً .

إنّ بلاط الشهداء موقف حاسم في تاريخ العالم كله ، فلو انتصر المسلمون فيها ، لسادوا فرنسة وغرب أوربة ، ثم أوربة كلها ، ولكان القرآن الكريم يدرس اليوم في جامعة أكسفورد كما قال أدوارد جيبون .

لقد ترتب على نتائج بلاط الشهداء تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير ، ولم تحل هذه الصدمة دون إعادة الكرّة على فرنسة ، إذ إن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف المسلمين عند هذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرّات أعقبها النّصر والفتح ، غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع إلى أنّ العرب ارتدوا عن فرنسة ولم يحاولوا إخضاعها إخضاعاً تاماً .. ولو تحقق إخضاعها كاملة لزالت عصورها الوسطى المظلمة مبكرة ، ولحققت من الحضارة والتقدم ما حققته الأندلس خلال عيشها في رحاب الإسلام . فلا غرابة إذن أن العديد من الكتّاب الغربيين الّذين رأوا روعة الإسلام وحضارته أينما حل ، اعتبروا نتيجة بلاط الشهداء نكبة كبيرة أصابت أوربة ، وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان[١] .

---

(١) التاريخ الأندلسي ، ص : ٢٠٢

وستبقى ذكرى بلاط الشهداء لكل جيل لتشهد أنَّ القتال في الإسلام لله وحده ، خَالِصٌ في سبيله : « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** » .

فالجهاد وحبُّ الدُّنيا بكنوزها وغنائمها لا يلتقيان ، كأنّي بالمقاتلين في بلاط الشهداء لم يتَّعظوا بما جرى في أُحُد . فكان التفاتهم إلى الغنائم سبباً في هزيمتهم وانتصار الفرنجة ، وفي ذلك مخالفة للقانون الإلهي في إحراز النَّصر ، لما فيه من حب الدنيا وكراهية الموت ، وهذا ما كان ينبغي أن يضعه المجاهدون نصب أعينهم ، ولكنهم انحرفوا عن القانون والسَّبب ، فكانت الهزيمة . كيف لا والجهاد في الإسلام خالص لله وحده ، من أجل نشر وتبليغ الناس الرسالة الإسلامية ، لا من أجل دنيا يصيبونها ؟ فلا غرابة أن تكون النتيجة هزيمة ساحقة ، أَخَّرت نهضة أُوربة ستة قرون أو أكثر .

تمزق الشمل
وتفرق الكلمة

*﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

[الممتحنة : ١]

فتح المسلمون الأندلس سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م بتعاون طارق بن زياد وموسى بن نصير ، وبدأ عهد الولاة من عام ٩٥ هـ حتى ١٣٨ هـ أو ٧١٤ م حتى ٧٥٥ م ، وتميز عهد الولاة بالاستقرار ، وتنظيم البلاد ، وانتشار الإسلام بين الإسبان ، كما بدأ في هذا العهد جهاد المسلمين في غالية « فرنسة » خلف جبال البرت[1] .

وبعد سقوط الدّولة الأمويّة في الشّرق ، تمكن صقر قريش « عبد الرحمن

---

(١) راجع للتوسع في هذا البحث الكتب التّالية : فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، التّاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، عبر وعبرات من دمشق الأندلس للأُستاذ جواد المرابط ، مجلة الهلال العدد التاسع سنة ١٩٧٥ م مقال السيد أحمد توفيق المدني : « كيف انهارت الأندلس » . نفح الطيب للمقري جـ ١ و ٢ ، وكتابنا فتح الأندلس « معركة وادي لكة » .

الداخل »[1] أن يصل الأندلس ويؤسس إمارة أُموية . وبذلك بدأ عهد الإمارة عام ١٣٨ هـ واستمر حتى عام ٣١٦ هـ ، أو ٧٥٥ م حتى ٩٢٩ م ، ليبدأ عهد الخلافة أيام عبد الرحمن الناصر ، والّذي انتهى عام ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م . ليبدأ عهد الطّوائف .

عهد الطّوائف .. عهد التفكّك ، عهد من السّنوات الصّعبة من الفرقة والتّنافس والتّشتت والضّياع ، بدأ عندما أعلن أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر إلغاء الخلافة الّتي كان مركزها قرطبة .

يقول المقرّي في نفح الطيب : « وانقطعت الدّولة الأُموية من الأَرض ، **وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى**[2] الأُمراء والرُّؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا خُطَّتها ، وتغلب بَعْضٌ على بعضٍ ، واستقل أَخيراً بأَمرها منهم ملوك استفحل أَمرهم ، وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجِزَى[3] للطّاغية أن يظاهر عليهم ، أو يبتزّهم ملكهم »[4] .

وعدّد صاحب معجم الأَنساب والأُسرات الحاكمة في التّاريخ الإسلامي سبعاً وعشرين طائفة (أَو إمارة أو دُوَيْلة) تتنافس فيما بينها[5] ، منها :

بنو جَهْوَر في قرطبة ، وبنو حَمُّود بمالَقَة ، وبنو برزال بقرمونة ، وبنو ذي النون بطليطلة ، وبنو عباد بإشبيلية ، وبنو زيري بغرناطة ، وبنو الأَفطس

---

(١) عبد الرَّحمن بن معاوية بن هشام عبد الملك بن مروان [١١٣ ـ ١٧٢ هـ / ٧٣١ ـ ٧٨٨ م] يقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبطه المُلْك ، توفي بقرطبة ودُفِن في قصرها ، [الأعلام : ١١٣/٤] .

(٢) انتزى : نزا بمعنى وثب ، وهنا المعنى استقل وثار . « مختار الصحاح » ، ص : ٥٦٣ » .

(٣) الجِزَى : جمع جزية .

(٤) نفح الطيب ، جـ : ١ ، ص ٤١٣ ، والطّاغية هنا تعني : ملك الإسبان .

(٥) معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التّاريخ الإسلامي للمستشرق زامباور ، ص : ٨٦

ببطليوس ، وبنو صمادح بالمرية ، وبنو تجيب وبنو هود بسرقسطة ولاردة ، والعامريون ببلنسية ...

وقد سببت هذه الدُّويلات حالة من الارتباك وضياع الجهود ، وتربَّص بعضها ببعض ، لعل أمير أحدها يملك مابيد غيره ، ولعل ملك أحدها يسيطر على أرض جديدة فيتوسع على حساب أخيه .

بينما كانت إسبانية النَّصرانيَّة تتربَّص بهم جميعاً ، حتى بمن بينها وبينه تحالف أو صداقة ، لقد جمعت إسبانية قواها ، عندما توحدت قشتالة وأراغون بزعامة ألفونسو السَّادس ملك قشتالة وحليفه ساشو الثاني ملك أراغون . ولما قام ألفونسو السَّادس حاكم إسبانية النَّصرانيَّة بهجومه على طليطلة ، واحتلها سنة ٤٧٨ هـ ، وقفت بقية الطَّوائف تنظر ولم تحرك ساكناً لنجدة طليطلة ، ولكأنَّ الأمر لا يعنيهم ، بل إنَّ بعضهم طلب عون ألفونسو وأعلن له خضوعه ، كالمعتمد بن عباد الَّذي حالف ألفونسو السَّادس ، الَّذي تسمى بالإمبراطور ، أو بالإمبراطور ذي الملَّتين « الإسلامية والنَّصرانيَّة » .

وقامت في الأندلس بعد سقوط طليطلة دعوة لتوحيد الجهود ، وجمع الشَّمل ، تولاها القاضي أبو الوليد الباجي ، لكنها باءت بالفشل .

لقد رأى ملوك الطَّوائف طليطلة تتهاوى أمام أعينهم ، وتسقط من حولها الحصون والمدن أيضاً ، وهزَّ ذلك العالم الإسلامي كلَّه ، وسادته حال من الحزن فيها مرارة وأسى وملوك الطوائف ينظرون إلى الأمر وكأنَّه لا يهمهم ، ولا يستهدفهم ، فحمَّل المسلمون في الأندلس وفي العالم الإسلامي ملوك الطَّوائف المسؤولية ، لقد رأوا نتيجة تشتتهم وانقسامهم وتبعثر قواهم بأُمِّ أعينهم ولم يتعظوا . وهذا هو ألفونسو السَّادس يطالب حليفه المعتمد بن عباد ببعض الحصون والقلاع ، وبالتعجل بدفع الضَّريبة السَّنويَّة ، وكان حامل المطالب هذه

يهودياً ، فأغلظ في القول للمعتمد ، فأمر بقتله ، فكان ذلك إنذاراً بالحرب ضد ألفونسو السّادس الّذي بدأ يحشد قواته[1] ، فمن لموقف الضّياع والتّشتت هذا ؟

كان الرجل المناسب لهذا الموقف الحرج يوسف بن تاشفين[2] أمير المرابطين ، الأمير المسلم بما في هذه الكلمة من معاني الإقدام والجهاد لله وحده ، وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد أن ينقذ هذه الأُمَّة في شرقها وفي غربها من الهجمات الصَّليبيَّة على يد يُوسُفَيْن ، يوسف صلاح الدِّين الأيوبي في الشَّرق ، ويوسف بن تاشفين في الغرب .

قدمت من الأندلس إلى مراكش عاصمة المرابطين الوفود الشَّعبيَّة والرَّسميَّة في آنٍ واحدٍ ، تحثُّ وتستنهض ابن تاشفين على الجهاد ، فهب وقومه وهم المرابطون في سبيل الله ، وقد آن أوان الجهاد ، وآن أوان نصرة المسلمين في الأندلس . فعبر يوسف بن تاشفين وجنده مضيق جبل طارق ، والتقى بجيوش النَّصارى ، حيث جيوش قشتالة بقيادة ملكها وفارسها الكمبيادور ، وملكي نافار وأراغون ، ولسنا هنا في صدد شرح الخطَّة العسكريَّة الرَّائعة الَّتي أمنت عنصر المفاجأة ، والَّتي دلت على فكر ابن تاشفين العسكري الممتاز[3] . ولكن يمكننا القول إنَّ ابن تاشفين انتصر في معركة الزَّلاَّقة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ تشرين الأوَّل (اكتوبر) ١٠٨٦ م ، وبلغ عدد قتلى النصارى فيها أكثر من عشرين ألفاً .

وتذكر كتب التاريخ مراسلة بين ابن تاشفين وألفونسو السَّادس قبل المعركة ، عرض بها ابن تاشفين الإسلام أو الجزية أو الحرب ، فأجابه ألفونسو السَّادس مهدِّداً ساخراً . وكان رد ابن تاشفين : « **الجواب ما ترى لا ما تسمع** » ،

(١) المغرب عبر التّاريخ ، للأُستاذ إبراهيم حركات ، جـ : ١ ، ص : ١٧٤

(٢) يوسف بن تاشفين ، « أمير المرابطين » : من سنة ٤٥٣ وحتى سنة ٥٠٠ هـ .

(٣) راجع كتابنا : « الزَّلاَّقة بقيادة يوسف بن تاشفين » الجزء الثامن من سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام » .

فرأى ألفونسو السَّادس هزيمته وفرار جنده ، وسمع « الله أكبر » هتافاً سماويّاً ، من قلوب مؤمنة ، ومن أفواه مجاهدين جاؤوا لتحقيق كلمة الله في الأَرض ، فكان الله معهم ، ونصرهم في معركة الزَّلاَّقة الَّتي مَدَّت سلطان المسلمين في الأَندلس أَربعة قرون أُخرى .

عاد ابن تاشفين إلى المغرب العربي ، وعاد ملوك الطَّوائف إلى خلافاتهم ، وعادت سرايا النَّصارى تضايق من جديد سكان مُرْسِيَه وَبَلَنْسِيَة وغيرها من المدن المسلمة ، فهرع المعتمد بن عباد يشكو إلى ابن تاشفين ظلمهم ، فعبر ابن تاشفين إلى الأَندلس عبوره الثاني[1] ، وصدَّ النصارى ، وعاد إلى المغرب العربي .

كره الفقهاء عبث ملوك الطَّوائف وانشغالهم عن خطر العدو بالنزاع فيما بينهم ، فطلبوا من ابن تاشفين العبور إلى الأَندلس ، وخاف ملوك الطَّوائف على ملكهم ، حتَّى أَنَّ عبد الله بن بلكين حالف ألفونسو السَّادس وطلب مساعدته ضد أَمير المرابطين يوسف بن تاشفين ، فما كان ردُّ يوسف إلاَّ أَن ضم الأَندلس إلى حكمه المباشر سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م ، بعد أَن اتضحت له خيانة بعض ملوك الطَّوائف صريحة ، وتأَكَّد له انشغال بعضهم الآخر في منازعات جانبية كانت لمصلحة النَّصارى الإسبان ، فأَنقذ ابن تاشفين بذلك ما يمكن إنقاذه .

وانقضى أَمر ملوك الطوائف باستثناء بني هود الَّذين احتفظوا بالثَّغر الأَعلى بطلب منهم ، وبموافقة ابن تاشفين .

☆ ☆ ☆

ثمَّ قامت في المغرب العربي دولة الموحِّدين ٥٤١ هـ/١١٤٧ م ، وترقَّب النصارى الموقف ، فوجدوا مناسبة عندما مرض أَمير الموحِّدين يعقوب

---

(١) في ربيع الأَوَّل ٤٨١ هـ / حزيران (يونية) ١٠٨٨ م .

المنصور[1] ، فطالبوه بعبيد ومراكب وسفن ، وكأنّها جزية مفروضة ، فسار يعقوب المنصور إليهم ، وكانت المعركة بينهم قرب قلعة « الأَرَك » بين قرطبة وقلعة رباح في شعبان ٥٩١ هـ/١١٩٥ م ، وكان النَّصر رائعاً للمسلمين على النَّصارى ، فلاذوا بالفرار ، وتحصَّن بعضهم في قلعة الأَرَك ، فاقتحمها المسلمون عليهم .

والحق .. إنَّ معركة الأرك قريبة الشَّبه في أهميتها ونتائجها بمعركة الزَّلاَّقة ، ولكنها كانت آخر معركة عظمى تَمَّ فيها للمسلمين انتصار ساحق بالأَندلس ، كانت له نتائج إيجابيَّة رائعة .

لم ينسَ ملك الإسبان ألفونسو الثَّامن عار الهزيمة الذي لحقه منذ معركة الأَرَك ، فصار يهاجم الأراضي الإسلامية فأعدَّ أمير الموحدين محمد الناصر عام ٦٠٧ هـ جيشاً لمحاربة النَّصارى الَّذين استنجدوا بكل دول أُوربة ، فجاءتهم النَّجدات الهائلة من مختلف أصقاع القارة الأُوربيَّة .

استرجع النصارى حصن الأَرَك ، وزاد الأَمر سوءاً أنَّ الوزير ابن جامع - وزير أمير الموحِّدين - قد أوقع الخلاف بين جيش الموحِّدين ، وبين القوات الأَندلسيَّة ، مما جعل الأَندلسيين يحقدون على الموحِّدين .

وكان اللِّقاء الحاسم على مقربة من حصن العِقَاب ، وبدأ القتال ، فاعتزل الأَندلسيون الحرب وانسحبوا في هذه السَّاعات الحرجة العصيبة ، فتبعتهم النَّصارى يقتلون ويأسرون ويجمعون الغنائم ، وصمد محمد النَّاصر ، ولكن هيهات تحقيق النَّصر بعد أن تصدع الصفُّ الدَّاخلي ، فحاقت الهزيمة بالمسلمين في ١٥ صفر ٦٠٩ هـ/١٦ تموز (يولية) ١٢١٢ م ، وفقدوا ثلث قواتهم .

---

(١) إمارته من سنة : ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ .

ويمكن إرجاع الهزيمة المرّة الّتي كانت من أسباب ضياع الأندلس[1] ، إلى أسباب أهمّها :

١ ـ شخصيّة أمير الموحّدين محمّد النّاصر الضّعيفة أمام وزيره ابن جامع الّذي أوقع الخلاف بينه وبين الأندلسيين ، وهم قوة لا يستهان بها في المعركة .

٢ ـ انسحاب الجيش الأندلسي بسبب موقف ابن جامع ، فجرّوا بفرارهم انسحاب باقي الجيش .

٣ ـ تعرّض الجيش الإسلامي طيلة ثمانية أشهر لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التّموين .

٤ ـ تماسك النّصارى الّذين اختلفوا فيما بينهم قبل المعركة حتى حارب بعضهم بعضاً ، وقد توسط البابا سلستان الثّاني ، فوفق بين مختلف الأمراء الإسبان ، وسرعان ما نسوا خصوماتهم ، فتماسكوا ، وهم يعتقدون جازمين بأنّهم جاؤوا من كلّ أصقاع أوربة لنصرة دينهم على دين آخر .

٥ ـ عدم ثبات العرب والبربر بعد انسحاب جند الأندلس ، مما يدل على ضعفٍ في القيادة ، وسوءٍ في التنسيق .

وتابعت الجيوش النّصرانية ملاحقة المنهزمين حتى ردّهم أبو زكريا بن أبي حفص قرب إشبيلية .

لقد كان لهزيمة العِقَاب أثرها المعنوي على الموحّدين في المغرب العربي ، فسببت سقوط دولتهم ٦٦٨ هـ/١٢٦٢ م .

☆ ☆ ☆

---

(١) المغرب عبر التّاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٩٤

بعد ضعف السُّلطة الموحِّديَّة في الأَندلس ، ضاعت عدة قواعد إسلامية بيد الإسبان ، وظهر محمَّد بن يوسف بن هود في سرقسطة ، وبدأ نشاطاً ضد الإسبان ، غير أَنَّه كان ينقصه التأَني والتَّريُّث وتحيُّن الفرص ، لذلك خسر معارك عديدة أمام الإسبان .

☆ ☆ ☆

وفي غَرْناطة أَسَّس محمَّد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأَحمر مملكة ، عمَّرت رغم الصعوبات الدَّاخلية والخارجيَّة ما يزيد على قرنين ونصف ، وسبب هذا البقاء وجودها في الزَّاوية الجنوبية من الأَندلس ، حيث لم يتأَخر الإخوة في العُدْوَة الأَفريقيَّة عن عون بني الأَحمر ، ماداموا يقفون أَمام عدو صليبي ، وماداموا يرغبون في نصرة المجاهدين ، وفي الجهاد في سبيل الله خالصاً لا مغنم دنيوياً فيه .

وتنبَّه الإسبانيون لأهميَّة الإمدادات من إفريقية ، فاحتلوا جبل طارق سنة ٧٦٧ هـ/١٤٦٢ م ، ليحولوا دون وصول الإمدادات من المغرب العربي إلى الأندلس ، وجاءت الظروف تعاكس مصلحة مسلمي الأَندلس ، عندما سقطت الدَّولة المرينية سنة ٨٦٩ هـ/١٤٦٤ م ، لتحل محلها دولة فتيَّة هي دولة بني وَطَّاس ، الَّتي لم تكن على مستوى كافٍ لدعم مسلمي غَرْناطة والجهاد في الأَندلس .

وفي هذه الآونة أيضاً ، فتح المسلمون العثمانيون القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م ، بقيادة محمَّد الفاتح ، فكان لسقوط القسطنطينية بيد المسلمين وقعهُ الهائل على مسيحيي أُوربة والعالم كُلِّه ، فساعد ذلك على ازدياد الهجوم الإسباني على الأَندلس ، فاتحدت قشتالة وأَرغون سنة ٨٨٣ هـ/١٤٧٩ م ، بزعامة الملكين الكاثوليكيين فرديناند ملك أرغون ، وإيزابيلا ملكة قشتالة ، لتبدأ الحملة نحو غَرْناطة التي سقطت في ٢١ المحرم ٨٩٧ هـ/٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١ م .

وغابت شمس الإسلام عن الأندلس ، كيف لا ؟ والعدو عندما كان يتجه نحو الوحدة متناسياً خلافاته ، كانت إرادة المسلمين تتجه نحو التمزّق والاختلاف ، والتمسُّك بالمصالح الشّخصيّة ، وجعلوا الأندلس إمارات وممالك متناحرة متخاذلة ، أثاروا حروباً شعواء بعضهم ضد بعضهم الآخر ، حتى رأيناهم وقد استعانوا بعدوهم على أبناء دينهم وجلدتهم !

فعندما كان فرديناند وزوجه إيزابيلا يعلنان عزمهما على محق آخر دولة إسلامية في الأندلس ، وبينما كان البابا يعلن في رومة أنَّ هذه الحرب ضد المسلمين إنّما هي حرب مقدّسة ، ويفرض على المسيحيين كافة ضريبة من أجل تحطيم المسلمين لا في الأندلس فحسب ، بل في شمال إفريقية أيضاً ، كان المسلمون قد ركنوا إلى الرَّاحة ، وأسندوا الأمر إلى غير أهله ، وكرهوا الجهاد ، فنرى السلطان أبا الحسن علي بن يوسف مسترسلاً في ملذاته : رقص سماح ، وموشحات أندلسية ، وراقصات فاتنات كاسيات عاريات .. وثار عليه أخوه محمّد الملقّب بالزغل « أي الفتى النبيل المقدام » ونصب ملكاً بمالقة ، فانقسمت غَرْناطة إلى مملكتين ، والعدو ينظر بعين الرِّضا وقلبه مفعم بالسرور .

وتعقدت الأمور أكثر عندما بدأ التناحر على ولاية عهد السلطان أبي الحسن ، فهو قد اتخذ لنفسه حظية إسبانية اسمها ثريا ، ورزق منها بأولاد ، إلى جانب ولدين من زوجة كريمة هي ابنة عمّه عائشة الحرَّة ، وكان كبير أولاده من الحظية الإسبانية هو يحي ، وكان هم والدته إسناد ولاية العهد لابنها ، فانقسمت مدينة غَرْناطة وهي مهدّدة بالخطر الشّديد إلى قسمين متعادلين ، كل قسم منها يؤيد أحد الوليين .

وثارت غَرْناطة وخلعت السلطان أبا الحسن لتبايع ابنه أبا عبد الله محمّد المعروف بأبي عبد الله الصغير ملكاً ، ويفر الملك من وجه ابنه ، ويعلن أنَّ ابنه شق عصا الطاعة وأنّه هو الملك الشّرعي ، ولم يلبث أن عاد على رأس جيش

ونصَّب نفسه ملكاً على قسم من مدينة غَرْناطـة ، وبقي القسم الآخر مواليـاً لابنـه أبي عبد الله الصَّغير .

فأمام وحـدة الإسبـان ، بل وحـدة الصَّليبيَّـة الأُوربيـة كلّهـا ، وأمـام خطر السُّقوط والتَّلاشي يقف ثلاثة ملوك متناحرين : الملك أبو الحسن ، والملك الزغل شقيقه ، وأبو عبد الله الصغير ابنه .

ووصلت الحال بالانقسـام والحمـاقـة المنكرة ، أن أبـا عبـد الله الزغل أصـاب النَّصارى في إحدىٰ معاركه بكارثة مؤلمـة ، وأثخن فيهم ، فـإذا بـالملـك المشؤوم أبي عبد الله الصَّغير يبعث برسالة إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عما فعله عمه .

في هذه الظروف تألَّبت المسيحيَّة في أُوربـة كلِّهـا على المسلمين في الأنـدلس ، فسـار فردينـانـد وإيزابيلا مع اثني عشر ألف فـارس ، وأربعين ألفـاً من المشـاة ، وستة آلاف من ممهدي الطُّرق أمام الجيش .

وكان على رأس المتطـوعين الفرنسيين الَّـذين جـاؤوا لنصرة الإسبـان القـائـد **« كاسطـون اليـوني » ، وعلى رأس المتطـوعين الإنجليز « اللـورد سكالس » وكان** المتطوعون الأَلمان يشتغلون بالمدافع ويحسنون توجيه ضرباتها[1] .

وبلغت الخسَّة والنَّذالة بأَبي عبد الله الصغير أَنَّه لما سقطت مدينـة مـالقـة ، وتحول مسجدها الأَعظم إلى كنيسة ، أرسل يهنِّئ فردينـانـد بـذلـك ، لا لسبب إلاَّ لأَنَّهـا كانت معقـلاً لعمِّـه ومنـافسـة أَبي عبـد الله الـزغـل !! ولأَنَّـه يعتبر نفسـه حليفـاً لفرديناند ضدَّ الزغل !!

ولكن فرديناند وحلفـاءه سرعـان مـاقلبوا لأَبي عبـد الله الصغير ظهر المِجَنّ

---

(١) راجع الهلال العدد التاسع سنة ١٩٧٥ م ، ص ٢٠ ومابعدها ، مقال الأُستاذ أحمد توفيق المدني : (كيف انهارت الأَندلس ؟) .

وقاتلوه وطلبوا منه تسليم مفاتيح الحمراء مقر ملكه ، فحاول المقاومة بعد فوات الأوان ، فاضطر إلى عقد صلح مؤلف من ٦٧ مادة[١] واحتل العدو الحمراء وتسلّط على غَرْناطة كلّها ، وأوعز إلى أبي عبد الله الصَّغير بالرحيل ، فرحل إلى قرية « أندرس » ثم طرده فرديناند ، فركب البحر إلى العدوة الإفريقية ، واستقر في مدينة فاس حيث قضى أيّامه الأخيرة كمداً وغمّاً ، يتلظى بنار الخيانة والفرقة والانقسام ، وكأنّه ، وكأن ملوك بني الأحمر ، لم يسمعوا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، [الأنفال : ٤٦] .

هكذا انصرم حبل الإسلام في الأندلس بعد أن بقي فيها سبع مئة وثمانين سنة ميلادية . منذ انهزم لذريق أمام جيش طارق بن زياد في معركة وادي لكّة (تموز « يوليو » ٧١١ م) ، إلى تسليم أبي عبد الله الصغير غرناطة عام ٨٩٧ هـ/١٤٩١ م .

لقد أُسدل السّتار على الحكم الإسلامي في الأندلس لتبدأ محنة شعب مسلم يواجه محاكم التّفتيش الّتي أجبرت بروح صليبيّة حاقدة المسلمين في إسبانية على اعتناق النّصرانيّة ، ومن حاول الهجرة إلى العدوة الإفريقيّة . لاحقته محاكم التفتيش وأبادت ما يمكن إبادته . يقول لوبون في [حضارة العرب] : « الرّاهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠,٠٠٠ مهاجر مسلم ، حينما كانت متجهة إلى إفريقية[٢] » .

---

(١) كما يذكر المقري في نفح الطيب ، وذكر الأستاذ عنان في نهاية الأندلس أنّها ست وخمسون مادة .

(٢) حضارة العرب ، ص : ٢٧٠/٢٧١ . وفي كتاب « الإسلام والعرب » لروم لاندو (دار العلم للملايين ، ط : ١ ، ١٩٦٢ م) : « برنامج التّنصير الإجباري شعاره : إمّا المعموديّة ، وإما الإخراج من البلاد . ويقدر المؤرخون عدد المسلمين الّذين أُبعدوا أو قُتِلوا ما بين سقوط غرناطة ومطلع القرن السابع عشر بثلاثة ملايين ونصف » . ص : ١٨٠

وستبقى ذكرى الأندلس عبرة لأُمتنا ، نرى من خلال الذكرى عواقب التنازع والانقسام ، عواقب الانحلال الخلقي والتفرقة ، عواقب الموشحات ورقص السَّماح .

المسلمون في نصف قرن فتحوا نصف الدنيا ، ولكن بوحدة الكلمة ، والتحام الصَّف ، ووضوح الهدف ، مع متانة العقيدة . وفي الانقسام ، بل وبالاستعانة بالعدو ، قلب الله عزَّهم ذلاً ، وغناهم فقراً ، وقوتهم ضعفاً ، وأَمنهم تشرُّداً ونزوحاً ، يقول ستانلي لين بول في « قصة العرب في إسبانية » : « زحف الدون جوان على العرب وهو يحمل شعار [**لا بقاء ولا هوادة**] فذبحت النساء والأطفال بأمره وتحت سمعه وبصره » .

علَّة السُّقوط عرفها القريب والبعيد ، قال المستشرق (كوندي) : **« العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها ، وأَصبحوا على قلب متقلب ، يميل إلى الخفة ، والمرح ، والاسترسال بالشّهوات »** . فشعب هذه صفاته لن يصمد رجاله في حرب .



سُئِلت مرة عن سبب ضياع الأندلس ، فقلت :

دخلنا الأَندلس بشجاعة وفداء طريف بن مالك ، وعزيمة طارق بن زياد ، وإيمان موسى بن نصير ، وطموح عبد الرحمن الغافقي ، وبطولة السَّمح بن مالك الخولاني ، وتجدد الإسلام فيها بنجدة ومتانة عقيدة يوسف بن تاشفين .

بقينا في الأَندلس مابقينا مع الله ، وضاعت الأَندلس لما أضعنا طريق الله .

بقينا في الأَندلس بهمة عبد الرَّحمن الدَّاخل ، الَّذي قال لما نزل من البحر إلى برِّ الأَندلس ، وقد قُدِّم إليه خمرٌ ليشرب ، فأَبى وقال : إِنِّي محتاج لما يزيد في

عقلي لا لما ينقصه ، فعرف النَّاس من ذلك قدره ، ثم أُهديت إليه جارية جميلة ، فنظر إليها وقال : إنَّ هـذه لمن القلب والعين بمكان ، وإنْ أنا لهوت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها ، وإنْ لهوتُ بها عمَّا أطلبه ظلمت مهمتي ، فلا حاجة لي بها الآن ، فقالوا : إنَّ الأمير ذو همة .

مرت الأيَّام ، ومال المسلمون في الأندلس إلى حياة الرَّخاء والنَّعيم ، متناسين من يمكر بهم ، ومن يجمع صفوفه لسحقهم كان عدوُّهم يستعد عسكرياً ، ويوحد كلمته ، وهم في موشحاتهم وسماحهم وخمرتهم وترفهم مخمورون .

دخلنا الأندلس عندما كان نشيد طارق في العبور الله أكبر ، ذلك النَّشيد الَّذي لامس سمع الزمان فترنم لعذوبته ، وصدقه ، وجلاله .. فكان الله ورسوله مع طارق ، لقد أخذت طارقاً سِنَةٌ من نوم وهو يجتاز المضيق إلى أرض الأندلس ، فرأى النَّبيَّ ﷺ ، وحوله المهاجرين والأنصار قد تقلَّدوا السُّيوف وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله ﷺ : ياطارق تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدامه(١) .

وخرجنا منها لما صار نشيدنا :

دَوْزِنِ العودَ وَهاتِ القَدَحا ... راقَتِ الخَمْرَةُ وَالوَرْدُ صَحا !

ومما يؤسف له ، ويدمي القلب حزناً ، أن لا نحيي مِن أمجاد الأندلس إلاَّ قشورها ، وما كان من أسباب ضياعها ؛ أما حضارتِها ، أما علومها وأسباب ازدهارها ، فقد جعلناها وراء ظهورنا ، واكتفينا بما أحييناه من الموشحات ، ورقص السماح .. لذلك تكرَّرت العلة والهزيمة والضياع .

تَشَتُّت الأندلس إلى دول تكرر إزاء فلسطين ، فضاعت . أما دخلنا حرب ١٩٤٨ م سبع دول ؟ أما انهزمنا لأنَّنا سبع دول ؟ أما لو كنا دولة واحدة لما كانت

---

(١) نفح الطيب ، جـ ١ ، ص : ٢١٦

النتائج كما حصل . وما فضيحة الأسلحة الفاسدة في نكبة فلسطين ، إلاَّ نوع من التعامل مع العدو ضد الأخ والمواطن العربي ، فيا عجباً .. لقد تكرَّرت الصُّورة .

وكانت نكسة ١٩٦٧ م ، استمراراً لتلك الصُّورة الأندلسيَّة في تهوين قدرة العدو ، والاستخفاف بقدرته حيناً ، وفي التهويل والعويل والضجيج حيناً آخر . وفي عام ١٩٧٣ م ، كان الصُّمود العربي لسببين اثنين :

١ ـ روح الإيمان الَّتي ظهرت أثناء القتال .

٢ ـ وما نتج عنها من وحدة الصَّف والتكاتف اللَّذين سادا في حينه ، ماديّاً ومعنويّاً .

لقد كانت خطة العبور في السُّويس تحمل اسم « بدر » ، والحرب على الجبهتين السُّوريَّة والمصريَّة سميت : « حرب رمضان » أو « غزوة بدر التَّشرينيَّة » . وهذا مالاحظه الإعلام الأُوربي والعالمي معاً .

لقد ظهرت روح الإيمان في كلمات القادة العرب ، الَّتي خاطبوا بها أبناءهم المقاتلين ، حين توجهوا إليهم بمثل العبارات التالية التي نوردها حرفياً :

« فيا أَحفاد أَبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، يا أَحفاد خالد وأَبي عبيدة وعمرو وسعد وصلاح الدين ، إنَّ ضمير أُمتنا ينادينا ، وأَرواح شهدائنا تستحثُّنا أَن نتمثل معاني اليرموك والقادسيَّة وحطين وعين جالوت ..

وتشاء إرادة العلي القدير أن يكون جهادكم في هذا اليوم من أيَّام الشَّهر الفضيل ، شهر رمضان ، شهر الجهاد ، شهر غزوة بدر ، يوم الفتح ، شهر النَّصر ..

لقد انتصر أجدادنا بالإيمان ، بالتضحية ، بالتَّسابق على الشَّهادة دفاعاً عن دين الله ورسالة الحق ، وإنَّكم اليوم ببطولاتكم وشجاعتكم إنَّما تستلهمون هذه الرُّوح ، وتحيونها وتحيون بها تقاليد أُمَّتنا المجيدة .

فسيروا على بركة الله ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُم** ﴾ »[1] .

نرجو الله عزَّ وجلَّ أَن يجعـل من عبر الأَنـدلس منطلقـاً لـوحـدتنـا ، ورصٍّ صفوفنا ، ولَمِّ شعثنا ، فالتَّاريخ خير شاهد أَنَّنا منذ انطلقنا ، انطلقنا بـالإسلام ، وبسنا نوره كتبنا أَمجادنا ، وبه سدنا وحققنا انتصاراتنا .

وها نحن نرى أَنَّنـا كلما ابتعـدنـا عن الإسلام ، ابتعـدنـا عن النَّصر والمجـد ، وجاءت الهزائم لتحل مكان الانتصارات ، وكلما التصقنا به كان المجد والنصر معاً ، وكلما تفـاعلنـا معـه أكثر ، كان العز والجـاه والسؤدد أكثر ، ولقـد قـالهـا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قبل : « **ومهما نُرِد العزَّة بغيره يذلنا الله** » .

فهل من معتبر بأَحداث الأَندلس وضياعها ؟!؟

هل من متعظ من تكرار الصُّورة الأَندلسية في فلسطين وغيرها ؟!؟

أَلا فاعتبروا يا أُولي الأَبصار .

☆ ☆ ☆

---

(١) من خطاب السيد الرئيس في ٦ / تشرين الأول / ١٩٧٣ م .

عَدم مواكَبة التَّقدُّم العلمِّي
« الجُمُود »

☆ ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ، وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

[الزُّخرف : ٢٢-٢٥] .

شهد الشَّرق الأوسط في مطلع القرن السَّادس عشر للميلاد صراعاً أدَّى إلى تغيير في حدوده الجغرافية ، وكان هذا الصراع بين ثلاث قوى حين التقت مناطق نفوذ العثمانيين والمماليك ، بمنطقة نفوذ الصَّفويين الفرس :

١ ـ صراع بين العثمانيين الَّذين قطنوا القسم الأوسط والغربي من آسية الصُّغرى ـ تركية حالياً ـ وتوسَّعوا في شرق أوربة ، وبين الصَّفويين الَّذين سكنوا إيران وكان مذهبهم شيعيّاً ، ولغتهم الرَّسميَّة الفارسيَّة .

٢ ـ وبين العثمانيين والدَّولة المملوكيَّة الَّتي حكمت مصر وبلاد الشَّام .

ينتسب الصفويون إلى الشَّيخ صفي الدِّين إسحاق الّذي أقام في أربيل بأذربيجان بأواخر القرن الثالث عشر ، ويعتبر الشَّاه إسماعيل الصَّفوي المؤسس الحقيقي للدولة الصَّفويَّة ، فهو الَّذي قاد حملة عام ١٥٠٧ م فاحتل منطقة

البستان الواقعة على الفرات الأعلى بين مرعش وملاطية ، كما وصل الشّاه إسماعيل إلى بغداد غرباً ، وديار بكر شمالاً . وجعل المذهب الشّيعي المذهب الرّسمي لدولته ، وأخذ ينشره خارج بلاده ، مما أقلق جيرانه السّنيين العثمانيين . وأدى ذلك إلى نزاع مسلّح صفوي - عثماني في شهر آب ١٥١٤ م ، وكانت معركة « شالديران » التي هُزِمَ فيها الشّاه الصّفوي ، وانتصر السلطان سليم الأوّل العثماني . وأظهرت معركة شالديران ، تفوّق « بُنْدُقُ الرّصاص » الذي استخدمه العثمانيون ، فتمكنوا من احتلال تبريز عاصمة الشّاه الصّفوي الّذي انسحب جنوباً .

اختل توازن القوى في الشّرق الأوسط لصالح العثمانيين بعد انتصارهم في شالديران ، وبدأ الاحتكاك بينهم وبين المماليك ، بسبب اعتداء المماليك على قوافل المؤن العثمانية ، مما نبّه العثمانيين إلى الخطر المملوكي .

في ١٣ أيار ١٥١٦ م ، غادر قانصوه الغوري سلطان المماليك مصر متجهاً نحو سوريّة لاستعادة مرعش من العثمانيين ، والّتي كان يعتبرها المماليك جزءاً من أراضيهم وممتلكاتهم ، فوصل دمشق في ١٩ حزيران ١٥١٦ م ، ثم غادرها في ٢٥ تموز متجهاً شمالاً ، فانضم إليه نائب حماه جانبردي الغزالي ، ونائب حلب خيري بك .

اعتقد قانصوه الغوري أنّ مجرد ظهوره على حدود العثمانيين سيخيفهم ، وكان الغوري في الوقت ذاته يتفاوض مع الشّاه إسماعيل الصّفوي المنهزم في شالديران ، ووقعت مراسلاته بيد العثمانيين ، فسارع السُّلطان سليم الأوّل ، واتجه نحو الجيش المملوكي ، للقضاء عليه قبل أن يتم مثل هذا التحالف الصفوي - المملوكي .

وفي ٢٣ آب ١٥١٦ م ، التقى بقانصوه الغوري ، وذلك في موقع يُعرف بتل الغار في مرج دابق شمال حلب . فتغلّب العثمانيون على المماليك ، وقتل قانصوه الغوري في المعركة ، وانهزم المماليك ، فدخل سليم الأوّل حلب منتصراً ، ثم سار

إلى دمشق الَّتي غادرها في ١٥ كانون الأول ١٥١٦ م ، متجهاً إلى مصر ليَهْزِم طومَان بَاي الَّذي جمع بقية المماليك ، فكانت معركة الرِّيدانية في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ م ، وكان الانتصار الثَّاني السَّاحق للعثمانيين على المماليك .

والآن .. لماذا انتصر العثمانيون في شالديران عام ١٥١٤ م ، وانهزم الصَّفويون ؟

ولماذا انتصر العثمانيون في مرج دابق عام ١٥١٦ م وفي الرِّيدانية عام ١٥١٧ م وانهزم المماليك ؟

والجواب : أسباب نصر العثمانيين في هذه المعارك الثلاث واحدة ، وأسباب انهزام الصفويين والمماليك واحدة .

لقد انتصر العثمانيون بسبب تسلحهم الحديث وصناعتهم لمدافعهم وبنادقهم النَّارية مع حسن استخدامها ، وانهزم الصفويون والمماليك بسبب جمودهم ، وإهمالهم الأسلحة النَّاريَّة الحديثة ، واعتمادهم على الأسلحة التَّقليديَّة القديمة الَّتي تجاوزها الزَّمن .

في شالديران انهزم الصَّفويون بسبب سلاح المدفعية الَّذي كان يعوزهم ، والَّذي كان الصَّفويون الفرس عاجزين بسبب فقدانه عن مضاهاة العثمانيين في الميدان . وهذا حثَّ الصَّفويين على استقدام من يصنع لهم هذا السِّلاح الَّذي غير ميزان القوى في المنطقة لصالح العثمانيين .

وبالفعل ظهر في بلاط عبَّاس الكبير الصَّفوي (١٥٨٨ ـ ١٦٢٩ م) مغامران إنكليزيان وهما السير أنطوني والسير روبرت شيرلي ، اللَّذان مكناه آخر الأمر وبمساعدة صانع مختص بصناعة المدافع كان يصحبهما ، من أن يسلِّح الجيش الصَّفوي بسلاح المدفعية ، هذا السِّلاح الَّذي كان يعوز الصَّفويين من قبل ، والَّذي كان الفرس عاجزين بسبب فقدانه عن الانتصار على العثمانيين في شالديران .

واستغل الصَّفويون الفرص فيما بعد ، وبعد هذا التَّسليح . فعندما انهمكت الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في حروبها مع الإمبراطورية النَّمساويَّة المقدسة ، أعلن عباس الكبير الصَّفوي الحرب على العثمانيين عام ١٦٠٢ م وتمكَّن بجيشه الجديد من استرداد تبريز ، كما تمكن من أن يسترد شروان وأن يصل بغداد .

أمَّا المماليك ، فقد اعتمد جيشهم كليّاً على الفروسيَّة التَّقليديَّة من سيف ورمح ، ويورد بعض المؤرخين عبارة على لسان المماليك معناها :

« إنَّنا نحن المسلمين ورثنا عن ديننا الحنيف ، ونبيِّنا محمَّد ﷺ تعاليم الفروسيَّة وتَقاليدها من سيف ورمح ، فلن نستخدم غيرها »[1] .

لذلك أهملوا الأَسلحة النَّارية إهمالاً كبيراً ، ومالوا أيضاً إلى الرَّاحة والتَّرف ، حتَّى إنَّ غالبية الميادين التي بنيت للتدريبات العسكريَّة الحربيَّة تهدَّمت ، ولم تُبْنَ ميادينُ جديدة ، وحاول السُّلطان قانصوه الغوري أن يبعث تمارين الفروسيَّة ، والرُّوح العسكريَّة من جديد ، فبدأ عام ١٥٠٣ م ببناء ميدان كبير ، أقام فيه تمارين الفروسيَّة ، كما كانت في أوجها .

كما حاول المماليك إدخال الأسلحة النَّاريَّة [كأحدث سلاح عرفه العالم في حينه] في دولتهم ، ولكن ذلك جاء متأخِّراً ، قبيل سقوطهم بسبع وعشرين سنة ، عام ١٤٨٩ م . وقد أدخلوا المدافع ، لكنها استخدمت للدِّفاع وليس للهجوم ، وذلك في الجبهة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة على ساحل البحر الأحمر بمصر ، في صد هجمات البرتغاليين . كما استخدم سلاح المدفعيَّة بشكل استحكامات دفاعيَّة .

ومما يسترعي الانتباه أنَّ هذه المدافع لم تستخدم في معركة مكشوفة ، مثل

---

(١) كما تكرَّرت صور من أُحُد في بلاط الشهداء ، تكرَّرت هذه الصُّورة في الجمهوريات الإسلامية في روسية في مطلع هذا القرن عندما كان الشيوعيون يتسلَّحون ، وقال بعض المسلمين : لا نقاتل إلا بسلاح قاتل به رسول الله !؟!

مرج دابق على الرغم من أنَّ الوسائل والزمن كانا متوفرين لنقلها إلى ساحة المعركة ، ولعل عدم نقلها يعود إلى كره المماليك لاستخدامها .

ويمكن القول : إنَّ استخدام الأَسلحة اليدويَّة النَّاريَّة « وتسمى بُنْدُقُ الرَّصَاص » ، والمدافع في الدَّولة المملوكيَّة قد تمَّ في الوقت الَّذي كانت فيه هذه الدَّولة سائرة نحو الانحطاط ، إن لم يكن السُّقوط ، على عكس الدَّولة العثمانيَّة ، الَّتي استخدمت الأَسلحة النَّاريَّة بصورة متطوِّرة منذ عام ١٤٢٥ م ، بل صنَّعت الدَّولة العثمانيَّة حينئذ هذه الأَسلحة لتوفر المعادن اللاَّزمة في أَراضيها ، في حين استورد المماليك المعادن لتصنيعها ، وكان لهذا الاستخدام العثماني المتطوِّر تأثير كبير غيَّر وجه الشَّرق الأَوسط بكامله .

وهذا لا يعني أَنَّ الدولة العثمانية لم تغفل جوانب أُخرى في قوَّاتها العسكريَّة ..

تقدم السُّلطان العثماني سليمان إلى ڤيينَّة عام ١٥٢٩ م ، وحاصرها ، ولكنه اضطر في ١٥ تشرين الأول إلى أن يرفع الحصار عن المدينة لقلَّة المؤن ، ولم تكن حملة سنة ١٥٣٢ م أَوفر حظاً من سابقتها . غير أَنَّه استطاع أن يحتل قلعة كُوسَك المجريَّة ، ولكن الأَسطول الأُوربي الَّذي كان يقوده أَمير البحر الجنوي « أندريا دوريا » والَّذي كان يعمل بنجاح على شواطئ شبه جزيرة المورة في اليونان ، لم يلبث أَن أَضاع على سليمان ثمرة النَّصر الجزئي الَّذي أَحرزه . لذلك انصرف سليمان بعدها إلى تعزيز قوته البحريَّة في المحل الأَوَّل كوسيلة لتلافي هذا النقص في قواته ، هذا النقص الَّذي سبب إخفاق الحروب العثمانيَّة الأَخيرة في أُوربة .

ووجد سليمان في شخص خير الدين بربروسَّا وأَخيه عُرُوج ، خير معين له لتحقيق هدفه في إنشاء أسطول عثماني ، يضاهي الأَسطول الأُوربي المتطوِّر ، واستطاع خير الدين بحق أَن يترك للعثمانيين بعد وفاته سنة ١٥٤٦ م أُسطولاً

مجهَّزاً تجهيزاً حسناً ، وبحارة تمرَّست بالمعارك في سواحل إفريقية وجزر المتوسِّط ، فليس عجيباً أن يكون هذا الأُسطول ، وهؤلاء البحَّارة أداة فعالة في تنفيذ سياسة السُّلطان العثماني ومشروعاته .

إنّ الجمود الَّذي سبب انهزام المماليك في مرج دابق ، وقعت فيه الدَّولة العثمانيَّة في سنيِّها الأخيرة ، فأضرَّ ذلك بالإسلام والمسلمين .

لقد أصبحت القاعدة في أواخر الدَّولة العثمانيَّة : إبقاء القديم على قدمه ، كرهوا التغيير ، فسبقهم الزّمن وتقدَّمت العلوم وازدهرَت الصّناعات .. وهيهات للجمود والمحنَّطين أن يقفوا في وجه مطامع الأُوربيين المتطوِّرين في وسائل الحرب والصّناعة .

وأصبحت هذه السّنوات الأخيرة من عمر العثمانيِّين حجة لغير المسلم على المسلم ، بل حجّة للمسلم غير الملتزم على المسلم الملتزم بشريعة الله . لأن كثيراً من أُمور الحياة كانت تسير منافية لمتطلبات الحياة ، ومنافية للعقل والتقدم العلمي ، لا لشيء إلاَّ لبقاء القديم على قدمه ، وكل ذلك كان يحدث باسم الإسلام .

وهنا نتذكر الحادثة التالية :

رأى رجل جامد العقل ، ضيِّق الأُفق سكَّة قطار ، فقال : وهذه لماذا ؟

فقيل له : انتظر قليلاً وسترى جواب سؤالك ، فإذا بقطار محمَّل بمئات الأطنان من البضائع والموادّ الزِّراعيَّة ، مع مئات من أفراد الأُمَّة ، ينقلهم بسرعة ، يوفر عليهم الوقت ، ويؤمن لهم الرَّاحة ، مع الأمن والطمأنينة من قبل قوات أمن مرافقة .. فقال هذا الرجل : ركب المسلمون القطار !؟ قالوا : نعم .. إنَّه أحدث وسائل النَّقل اليوم ، قال الرجل بغضب : ترك المسلمون ركب الدواب حميراً وجمالاً ؟! قالوا : نعم .. فصار الرَّجل يصرخ مستغيثاً متضرِّعاً : وامحمَّداه ! وإسلاماه ! واقرآناه ! ضاع المسلمون ، وضاع الإسلام ، لقد تركوا جِمَال محمد ،

وخَيْلَ محمد ، لقد تركوا سُنَّته ، وركبوا البدعة ، ركبوا القطار ، واإسلاماه على ترك السُّنَّة المحمَّديَّة ! انتظروا السَّاعة ! لقد ترك المسلمون ما ركبه موسى وعيسى والأنبياء من قبل ، وركبوا القطار .

مثل هذا التفكير يؤخر تقدم الأُمم ، ويقدم لأَعدائهم صيداً ثميناً طريّاً . فمثل هذا الرجل الجاهل لا يمثل إلاَّ نفسه ، وتفكيره المحنَّط . إنَّها آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ فيها المعجزة الَّتي لو فهمها ما وقف موقفه الجامد : ﴿ **وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ ، [النَّحل : ٥ـ٨] .

أليس القطار ووسائل النَّقل الحديثة من طائرات وعربات ومركبات .. من قوله تعالى : ﴿ **وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ ؟.

وهكذا فإنَّ عدم مواكبة ركب العلم بسبب الجمود والتَّزمت سبَّب انهزام المماليك في معركة مرج دابق ، وضياع ملكهم ، وتكرُّر الصُّورة جعلها هي نفسها سبب ضعف الدَّولة العثمانيَّة وبالتَّالي سقوطها أمام ضربات الطَّامعين بأَراضيها من قياصرة الرُّوس ، أو الأُوربيين الَّذين يهمهم ثروة الشَّرق ومركزه الاستراتيجي الهام .

المنهزمون

أَمَامَ الْمَبادِئِ الدَّخيلَةِ

☆ما أحوجنا اليوم إلى النَّظر في مصور العالم الفكري ، لا في مصوَّره الجغرافي !! .

إنَّ المسلم المنهزم أمام العقائد المستوردة ، مسلم لم يكتمل إسلامه ، مسلم لم يتثَّقف بثقافة الإسلام ، ولم يدرسه ، ولم يتعب نفسه في الاطلاع على دينه كما جاء صافياً لا شائبة فيه ، فالمنهزم أمام المبادئ المستوردة ، منهزم لأنَّه فقد السّلاح ، فَسَهُلَ على الدَّخيل الغزو ، وصار يردد ما قيل له دون تحكيم عقل . بل صار « **نسخة كربونية** » عن تفكير من يُمْلِي عليه .

قالوا له : إنَّ الذين يكتبون التَّاريخ الإسلامي ينتقون منه حوادث ويغفلون دور الحركات التَّقدُّميَّة ، فردَّد القول معهم كأنَّه ببغاء مُدَرَّب .

وقالوا له : إنَّ التَّاريخ بجميع حوادثه ووقائعه يجب تفسيره وتعليله بأسباب مادِّيَّة اقتصاديَّة ، إنَّ أساليب الإنتاج هي الأساس الَّذي يرتكز عليه تاريخ البشريَّة ، وإنَّ المجتمع ينقسم إلى طبقات ، والتَّاريخ كلُّه يتلخَّص بالنِّضال الدَّائم بين هذه الطبقات ، منذ بدأت المِلْكِيَّة الفرديَّة لوسائل الإنتاج . فردَّد معهم ما قالوه له .

وقالوا : إنَّ مَنْ يُفَنِّدُ ما نقوله لك ، وما نحلِّله « تحليلاً علميّاً » ، تفنيده سطحي ، وتفكيره سلفي ، ورواياته تقليديَّة رسميَّة .. فردد معهم نظرياتهم ، ولو أنَّ الواقع - وهم يعلمون - ينقضها .

وقالوا : إنَّ الإسلام ظلم المرأة ، منعها من العمل والعلم ، وفضَّل الرَّجل عليها ، ومنعها من حرية اختيار الزَّوج .. فردَّد ما قالوه له ، دون الرُّجوع إلى الإسلام من مناهله الصَّافية[1] .

الانتقاء الَّذي نُنْتَقد به زوراً وبهتاناً ، لم يثبتوه علينا أوَّلاً ، ووقعوا فيه فأثبتوه على أنفسهم ، وحقَّ بهم المثل : « **رمتني بدائها وانسلَّت** » .

المؤرخون المسلمون عندما تكلموا عن تاريخنا ، تكلموا عنه تاريخاً كاملاً لا انقطاع فيه ، أو إغفال لفترة ، أمَّا هم .. فكانت كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم كلُّها انتقاء : خُرَّميَّة ، بابكية ، قرامطة ... فتخيَّروا ما يخدم خطتهم المسبقة ، وطوَّعوا الأحداث لها ، ليثبتوا فكرة أو نظريَّة قرَّروها مسبقاً .

من كَتَبَ تاريخنا كاملاً كما جاء في مراجعنا المعتمدة الموثوقة[2] ، رموه « بالسَّلفيَّة » ، أو إنَّه يكتب من « روايات رسميَّة حكوميَّة » ، وهم يعتقدون أنَّ الرِّوايات الصَّحيحة عن القرامطة والبابكية والخُرَّمية والزنج ... غير موجودة ، وأنَّ ما كتبوه أُتلف ، فكيف يحلِّلون ، وعلى أيِّ شيءٍ إذن يعتمدون ؟!؟ كل كلماتهم بناء على أقوالهم تخميناً وظناً ، فوقعوا في الخيال المحض باسم « العِلْميَّةِ » أو « التفسير الاقتصادي للتَّاريخ » الَّذي من ضمن ملامحه البارزة « الصِّراع أو النِّضال الدَّائم بين الطبقات » .

يتحدَّثون عن التَّفسير العلمي للتَّاريخ ويكثرون الكلام عن الرؤية العصريَّة للحركات السِّرِّيَّة ، وبعد قراءة نتاجهم يجدهم المطَّلع الباحث أنَّهم أبعد النَّاس عن

---

(١) ما يدَّعون كثير ، رددنا على القسم الأعظم منه في كتابنا « الإسلام في قفص الاتهام » وأعقبناه بكتاب « آراء يهدمها الإسلام » .

(٢) سبق العلماءُ المحدِّثون المسلمون علماءَ الغرب بقرون ، بوضع أُسس دراسة الرَّاوي والرِّواية ، بحكم عملهم في تصنيف الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة ، وهي الأُسس نفسها الَّتي تنتهج اليوم في علم مصطلح التَّاريخ .

الحقيقة والعلم ، ويلمس أنَّهم يطوِّعون الأحداث بلفٍّ ودوران وكأن اللُّغة العربيَّة تحمل معنيين ، معنى يفهمه النَّاس عامة منذ مئات وآلاف السِّنين ، ومعنى اكتشفوه حديثاً ، لا يفهمه إلاَّ هم وأتباعهم .

تكلموا عن القرامطة ، فكالوا لهم المديح كأوَّل حركة تقدميَّة اشتراكيَّة في الأمَّة العربيَّة ، ووقعوا في الانتقاء . تكلموا عن جوانب وتغافلوا عن جوانب أوسع وأكبر .

ومما يضحك .. أن بعضهم يدعي أنَّ عدم تطبيق مبادئ الإسلام الحنيف كما جاءت به الرِّسالة الإلهية سبب ظلم هذه الطبقات ، فقامت بحركاتها المناوئة للدَّولة العبَّاسيَّة مثلاً ..

فكأنَّهم مسلمون ملتزمون غيورون على دينهم ، وساءَهم ألاَّ يطبَّق الإسلام ، فكالوا المديح لهذه الحركات ، ومُنِحَت وسام « **الحركات الجمهوريَّة الثَّوريَّة التَّقدميَّة الاشتراكيَّة** » .

ونحن نقول : إنَّ عدم تطبيق الدِّين إنْ صَحَّ ذلك بقدر معين ، لا يعني مطلقاً المروق من الدِّين ، فالخطأ لا يصححه خطأ . إنْ ظُلم بعض النَّاس من قبل فئة ، لا يعني الكفر بالدِّين لينتهي الظلم ، بل الدَّعوة إلى إحياء الدِّين إحياء صحيحاً ما دام يدعو إلى إنصافهم ، ومحو الظلم عنهم ، وقد تحقق ذلك حقاً في عهود عديدة ، عندما طُبِّق الإسلام كاملاً ، فنحن لا نقول لهم : « **إنَّ المريض غير المريض ، ولكن نقول إنَّ الطبيب غير الطبيب ، وإنَّ الدَّواء غير الدَّواء** » .

بدل الرُّؤية العصريَّة نحتاج إلى رؤية حقيقيَّة ثابتة ، ولو خالفت أهواء ونظريات « المحلِّلين العلميين » ، فلا للرُّؤية العصرية لأنَّها تتغيَّر بتغيُّر العصر وأهله ، وبحسب الرَّائي وأهوائه ، فالرَّفض منطقي للرُّؤية العصريَّة ، وللثورة على التُّراث ، لأنَّنا سنصل إلى عشرات الرُّؤى في كل عصر ، وستضيع بذلك

الحقيقة ، أما الرُّؤيا الحقيقيَّة فإنَّها باقية ثابتة لكل الأعصر ، هكذا كانت الأَحداث مجرَّدة ، وهكذا حدثت في زمان وقوعها .

فكرهم هو الصَّحيح دوماً ، وقولهم الحقُّ بلا تمحيص ، وهم أَصحاب الرَّأي القويم السَّديد دون منازع ، وهم الَّذين اتضحت لهم الرُّؤيا صافية جليَّة لا شائبة فيها ، فهم فيما يقولون مستنيرون مجدِّدون ، وهم وحدهم الَّذين عرفوا الحقيقة .. ومن يعارضهم لتجنبهم للحقيقة ، ومن يناقشهم ليكشف أهواءَهم ، ويظهر الحقيقة دون هوى ، فهو قاصر الفَهم ، شاذ الرَّأي ، رجعيُّ الفكر ، سلفيُّ المنهج ، غير موضوعي المنطلق .

من يفنِّد نظرياتهم يصفونه بعدم الإلمام بالموضوع من جميع جوانبه ، ولم يستطع استشفاف القضيَّة الجوهريَّة المطروحة ، وأُطره الَّتي يكتب منطلقاً منها أُطر أُسطوريَّة ساذجة . ومن إيديولوجية غيبية .

إن ما كتبوه قصدوا منه تفسير التَّاريخ تفسيراً اقتصادياً ، مغفلين كُلَّ الجوانب الأُخرى في المجتمع ، وكتبهم كلّها تقصد إظهار المجتمع في صراع طبقي مستمر حتَّى يصلوا إلى النُّبوءة الكبرى بزوال الطَّبقات الَّتي تستولي على وسائل الإنتاج ، ولا يبقى فيه إلا عامل ومعمل .

والواقع ينطق أن وسائل الإنتاج آلت شيئاً فشيئاً إلى أيدي خبراء الصناعة والاقتصاد ، وأن الحكومات المتصرفة في الإنتاج والتوزيع لن تستغني عنهم ، فعلى الأَدمغة الخبيرة تسير الصِّناعة ، وتتقدم المعامل ، ويُسَيِّر العمال .

وإن في المجتمع الحالي طبقة غير طبقتي العمال وأَرباب العمل ، هي الطبقة الوسطى الَّتي تضم صغار الصُّناع والمزارعين والتُّجار وأَصحاب المهن الحرَّة ، وهي فئة لم ترتفع كما أَثبت الواقع إلى سويَّة البورجوازيين ، ولم تنصهر بالطَّبقة العاملة .علماً أَنَّ التضامن بين أَفراد الطَّبقة الواحدة غيرموجود ، والمصالح في

الطّبقة الواحدة ليست متوافقة دوماً ، فالتّنافس والتّسابق على احتلال المراكز الشّاغرة في المعامل معروف في الواقع ، والتّضارب بين مصلحة العمّال وأرباب العمل ليس موجوداً دائماً ، فالجميع يعمل في مشروع واحد ، ولمصلحة مشتركة تفرض التّعاون للنهوض بالمشروع ، والحيلولة دون إفلاسه أو خسارته ، وهي تقابل مصلحة العمّال وربّ العمل في المشروع المنافس .

إن النّضال بين الطّبقات يستند إلى مصلحة مادية بحتة ، والحرب العالميّةالثّانية ، أثبتت أنّ الرّابطة الوطنية أو القوميّة لها دورها الكبير في المجتمع .. والتّاريخ خير شاهد على أنّ الطّبقة المظلومة في عرف الرؤيا العصريّة لم تكن متكاتفة مطلقاً ، وإلاّ فبماذا نفسر عدم تعاون صاحب القرامطة مع صاحب الزّنج[1] ؟! لا يُفَسَّر عدم التعاون إلاّ بعدم توحّد الهدف ، واختلاف المطامع الماديّة الدنيوية . ولماذا لم تتوحّد الطبقة المظلومة العربيّة والفارسيّة ؟ وأين نضال الطبقات الموحّد ضدّ السُّلطة « الرَّجعية » في الخلافة الإسلامية على ادعائهم ؟!؟

وإنّ التحليل العلمي للتّاريخ ، أو التّفسير المادّي له بشكل يجعله يطغى على كل جوانب وأسباب سير التّاريخ أمر مبالغ فيه ، ولم يقله من قال بتفسير التّاريخ تفسيراً ماديّاً اقتصاديّاً طبقياً ، وهذا ليس من عندنا ، بل قاله مؤسسو الفكر المادي :

أرسل أنجلز إلى كونراد سميث في ١٥ آب ١٨٩٠ م رسالة مما جاء فيها حرفيّاً : « نجد الكثيرين من النّاشئين الألمان يكتفي باستخدام عبارة المادّيّة

(١) دليل واضح لعدم وجود تفسير طبقي للمجتمع أيّام القرامطة ، عدم اتفاقهم مع الزنج ، بل إن التنافر الموجود بين مبادئهما صرف النظر عن الفائدة الّتي تعود عليهما نتيجة لهذا التحالف من الناحية العسكرية على الأقل .

التَّاريخيَّة - (وكلٌّ شيءٍ يمكن تحويله إلى اصطلاح)[1] - لكي يجعلوا من معلوماتهم التَّاريخيَّة القليلة نسبياً نظاماً دقيقاً بأسرع ما يمكنهم ذلك ، ثم بعد هذا ينظرون إلى أنفسهم نظرة عالية جداً » .

وجاء في رسالة أنجلز إلى يوسف بلوخ بتاريخ ٢١ أيلول ١٨٩٠ م : « إنَّ توجيه الكتَّاب النَّاشئين **الاهتمام إلى الجانب الاقتصادي بأكثر مما يستحق** أمر يقع اللّوم فيه على عاتقي وعاتق ماركس ، لقد كان علينا أن نؤكد هذا المبدأ الرئيسي لنعارض خصومنا الَّذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن لدينا دائماً الوقت أو المكان أو الفرصة لنضع **العناصر الأُخرى** الَّتي تتضمنها العلاقة المتداخلة في مواضعها الحقيقية .. ولسوء الحظ كثيراً ما يحدث أنَّ النَّاس يتصورون أنهم قد فهموا نظريَّة ما فهماً تاماً ، ويستطيعون تطبيقها دون كبير عناء ، وذلك منذ اللَّحظة الَّتي يتمكنون فيها من الإلمام بالمبادئ الرَّئيسيَّة الَّتي تقوم عليها النَّظرية ، بل إنهم قد لا يدركون هذه المبادئ دائماً الإدراك الصَّحيح ، ولا أستطيع أن أُعفي من اللوم الكثيرين من الماركسيين الأحداث عهداً ، إذ من هذه النَّاحية خرجت أشد الأشياء تفاهة وسخفاً » .

وفي رسالة أرسلها ماركس من بروكسل ٢٨ /١٢/١٨٤٦ م إلى ف . انتكوف جاء : « إنَّ تاريخ النَّاس الاجتماعي ليس إلاَّ تاريخ تطورهم الفردي سواء أكانوا يشعرون به أم لا يشعرون » .

وقال أنجلز لكونراد سميث في رسالة أرسلها من لندن في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٩٠ م : « من الصَّعب أن نبرهن على أنَّ الحريَّة المطلقة الَّتي ينعم بها الموصى في إنجلترة ، والقيود الشَّديدة المفروضة عليها في فرنسة هي أسباب اقتصاديَّة في جميع تفصيلاتها »[2] .

---

(١) هذه العبارة من مضمون الرِّسالة .

(٢) النُّصوص هذه من كتاب التَّفسير الاشتراكي للتَّاريخ للدكتور راشد البراوي ، نشر دار النهضة العربية ، ط : ٢ ، سنة ١٩٦٨ م . صفحة : ١٣٠ وما بعدها .

وممـا سبق نجـد أنَّ وضع التَّفسير الاقتصـادي ، أو التَّحليل العلمي ، لم يجعـل النَّاحية الاقتصادية هي كل شيء ، تشمل كل القيم الأُخرى في المجتمع ، وما أحوجنا اليوم إلى النَّظر في مصور العالم الفكري لا في مصوره الجغرافي أو الاقتصادي .

ومن يكتب على ضــوء التَّفسير الاقتصـــادي أو التَّحليــل العلمي نجـــده « ملكياً أكثر من ملك » ، يجعل النَّـاحيـة الاقتصـاديَّـة تشمل كلَّ القيم الأُخرى في المجتمع ، ونجده فاقداً للأمانة التَّاريخيـة في نقل النُّصوص ، فهو إمـا ينقل فقرة من نص ، وإمَّـا نصّـاً من موضوع ، وإمـا أن يحرِّف الكلم عن مواضعـه ، أو يتنـاسى فكره ، أو يطمس قولاً ، أو تراه يزيد كلمة أو كلمتين ، أو فقرة أو فقرتين .

ومثـال ذلـك قـول أحـدهم وهـو يحلِّـل بـدايـات المجتمـع العربي ـ الإسـلامي الوسيط ، فجعل النَّبيَّ ومن معه يميناً ، وقريش ووثنيتهـا يسـاراً ، ثم أورد البنـد الأوَّل من صلح الحديبية على نحو يخدم ما يريده ، لا بما تريـده الحقيقـة ، ليحقِّق ما يهـدف : « وضع الحرب بين المسلمين الثـائرين والقرشيين التُّجـار والمرابين عشر سنوات »[1] .

والنَّصُّ كما أورده « المحلِّل العلمي » انطلاقاً من «تفسيره الاقتصادي » لا يجـده المؤرخ الباحث في أيِّ مرجع ، فالنَّص كما جاء في تـاريخ الطَّبري ، وفي الكامل في التاريخ ، وفي البداية والنهاية وغيرها من المراجع العربيَّة ، حتى الأجنبية ككارل بروكلمان .. ليس هذا نصُّه ، والنَّصُّ الصحيح كما رواه الطَّبري مثلاً :

« هذا ما صـالح عليـه محمَّـدٌ بن عبـد الله سهيلَ بن عمرو اصطلحـا على وضع الحرب عن النَّـــاس عشر سنـوات يـــأمن فيهن النَّـــاس ، ويكف بعضهم عن

---

(1) لاحظ التَّخبُّط : « قريش ووثنيتهـا يسـاراً » ، ثم نصُّ الصلح كما أورده « المسلمين الثـائرين » فهم يسار حسب رأيه ، « والقرشيين التُّجار والمرابين » فهم هنا من اليمين !؟!

بعض »[1] .وبمقارنة ما أورده « المحلِّل العلمي » والمفسِّر الاقتصادي نجد الفارق الكبير بين النَّصَّين ، وبالتالي صدق النقل ، وصدق التفسير .

ومن موضوعيتهم ، وعدم سلفيتهم ، ومن منهجهم العلمي قول لوتسكي في كتابه « تاريخ العرب الحديث » عن سليمان الحلبي « الإرهابي » ،وعن المجاهدين المسلمين الَّذين صدُّوا العدوان الإسباني على سواحل المغرب العربي « **القراصنة العرب المسلمين** »[2] ...

والمنهزمون فكرياً يندبون حظَّ المرأة في الشَّرق ، ويوجهون إلى الإسلام اتهامات بشأنها ، وتراهم ينظرون إلى حريَّة المرأة الأُوربيَّة حيث نالت كامل حريتها ، وتساوت بالرجل وأكثر ، وقالوا إنَّها هناك مكرَّمة ، شاركت الرَّجل في المصنع وفي بناء الاقتصاد ، وفي مسيرة المجتمع ، أما هنا .. فحالتها على ضوء تعاليم الإسلام مؤلمة .

وقبل تفنيد آخر ما وُجِّه إلى الإسلام من أوهام لا يعرفها ، ومن اتهامات هو بريء منها ، نستعرض آخر البحوث الاجتماعية عن المرأة العربية مقارنة بالمرأة الغربيَّة ، والَّتي تمت تحت إشراف الأُمم المتَّحدة[3] .

إنَّ الدَّولة الَّتي أعطت المرأة حرِّية كاملة هي السُّويد ، حتَّى أن فلسفة التربية قد تحررت تماماً من تجهيز وإعداد الولد ليكون رجلاً ، ومن تجهيز وإعداد البنت لتكون امرأة ، فليس في فلسفة التربية في السّويد التَّمييز بين تهيئة الذكر

---

(١) راجع الطَّبري ، ج : ٢ ، ص : ٦٣٤ ، طبعة دار المعارف .

(٢) كتاب « تاريخ العرب الحديث » ص : ٧ و ٨ ، و ص : ٥٤

(٣) كلِّفت الأُمم المتحدة القاضية السُّويديَّة « بريجيدا أولف هامر » بهذا البحث . ونشرت « الأُسبوع العربي » البحث المذكور في عددها رقم : ٨٢٠ ، الصَّادر بتاريخ : الاثنين ٢٤ شباط ١٩٧٥ م .

للخشونة وقساوة الحياة ، وتهيئـة البنت لتكون أُنثى ، والأُنوثـة لاتعـامل برعـايـة خاصة لأنَّها أُنوثـة ، وهي لاتعتبر قرينـاً للضعف الطبيعي أو الرّقـة أو الـدلال ، بل إنَّ كلاً من البنت والولد يُهيَّأان نفسياً للحياة على أساس إنساني محايـد ، حتى الجنس جردوه من معنى السَّـالب والموجب ، ولم تعـد تستعمـل في القـامـوس السُّويدي كلمة « إغواء » بالمعنى الكلاسيكي في لغـات أُخرى . والَّتي تجعل انتهـاك العِرض تهمة قاصرة على الرِّجـال في حق النِّسـاء . ومن تحصيل الحـاصل أنَّ كلمـة « عُذرية » انقرضت تماماً .

وحرية المرأة في السُّويد شملت الحمل . فـالمرأة السُّويـديـة لاتريـد أن تفقـد حريتها في المتعة والانطلاق ، ولاتريد أن تقاسي من الحمل والولادة ، فهي تريـد الطِّفل جـاهزاً . ولهـذا فـإن الفتـاة السُّويـديـة الَّتي تريـد التَّخلص من الولادة ، لاتتعب ولاتحتار ، بل فتاة أُخرى تتقاضى أجراً لأنَّها قامت بمهمة الحمل بـالنِّيـابة عن الزَّوجـة الَّتي لاتريـد التَّعرض لهـذه التجربـة ، بل تريـد أن تـأخـذ الطِّفـل جاهزاً[1] .

السُّويـد الَّتي تبـدو كأنَّهـا تنتمي إلى جمهوريـة أفـلاطـون ، فـالـدَّولـة هي أُمّ الطِّفـل ، وهي لاتنظر إلى شهـادة ميـلاده ، ولا يهمهـا إن كان شرعيـاً أو غير شرعي ، وهي تعفي الأُمّ الَّتي أوصلته إلى عتبة الحياة من أيّ التزام برعـايتـه ، بل إنَّها تدفع لها ما يعادل مئـة ليرة سوريـة شهريّـاً عن كل طفل تضعـه منـذ لحظـة الميـلاد حتى سن السَّـادسـة عشرة . وبعـد الحـاضنـات والرَّواتب المرتفعـة تتعهـده بوجبات غذاء كاملة ، وبتعليم مجاني إلى المرحلة الَّتي يشتهيها ويتحملها .

السُّويد هذه أحسَّ بها المواطن بالأمان والرَّفاهية والمنعة إلى حدٍّ أنَّهـا منحت في دستـورهـا حـقّ الإضراب عن العمـل في ظـل القـانـون لكل فرد فيهـا . حتَّى

---

(١) وهذا هو السَّبب في أنَّ الأنساب في السُّويد أُصبحت « سمك لبن تمر هندي » !!

الضباط في الجيش السُّويدي ، وبالفعل فقد مارس الضباط السُّويديون هذا الحقّ منذ أربع سنوات تقريباً ، حين أرادوا أن يملوا على الحكومة حقّ السّماح لهم بممارسة أعمال إضافية في المساء ، أو بعد فراغهم من الخدمة العسكريّة ، حيث عمل بعضهم في فترات فراغهم كموظفي استقبال في الفنادق ، أو فنيين في المصانع الإلكترونية ، أو في مرآب صيانة سيارات ..

والشّعب السُّويدي أعظم شعب قارئ في العالم . فمتوسط توزيع الصّحف هناك خمس وخمسون نسخة لكل مئة فرد .

والسّجين السُّويدي يكلّف الدّولة مايعادل مئة ليرة سورية يوميّاً ، في حين يكلّف الشُّرطي خمس وسبعون ليرة سورية في اليوم ، فالسِّجن السُّويدي يكاد يكون فندقاً يقدم الطعام والشّراب لنزلائه ، ثم يقدم أجراً على عملهم في مصنع السِّجن قدره عشر ليرات في السّاعة الواحدة من ساعات العمل الّتي يبلغ معدلها أربعين ساعة عمل زيادة ، وله حق استقبال الزُّوار مرة كل أُسبوع لمدة ست ساعات ، وله الحق في إجازة ثمانية وأربعين ساعة كل شهر يقضيها مع زوجته أو أُسرته ، ثم يعود إلى السِّجن بعد انتهاء الإجازة .

من السُّويد ، من هذه البلاد الّتي أعطت المرأة كُلّ شيءٍ ، أعطتها الحريّة بكل معانيها وحدودها ، اختارت الأُمم المتّحدة القاضية السُّويديّة : « بريجيدا أُولف هامر » لدراسة مشاكل المرأة الشّرقيّة العربيّة على الطبيعة ، ومدى ما يصل إلى المرأة العربيّة في مختلف بيئاتها وتقاليدها ، من حقوقها المكفولة لها في دساتير وقوانين البلاد العربية . فدرست « بريجيدا » المرأة في الشّرق من أعماق المرأة الصّعيديّة في أبي طشت في صعيد مصر ، إلى أعماق المرأة التُّونسيّة في « سيدي تمراز » في تونس ، إلى عمق أعماق المرأة الليبية في مصراتة ، وإلى عمق أعماق المرأة العراقيّة في السُّليمانية .

وكان اعتقاد القاضية السُّويديّة الّتي مارست الحريّة في بلادها إلى أقصى

حدودهـا ، والَّتي درست عن كثب المرأة الشرقيـة **أن المرأة الشرقيّـة في قطـاعـات كثيرة و بارزة من البلاد العربيّة الّتي زارتها أكثر حرّية من المرأة السُّويديَّة .**

وقـالت « بريجيـدا » : المرأة القرويَّـة في صعيـد مصر ، والمرأة البـدويَّــة في أعماق فزان بليبية ، على الرغم من عزلتها عن المجتمع ، **فَإنّهـا تمـارس وضعـاً ينتمي إلى القـداسـة لا إلى العبوديَّـة** ، وتتسلـط على الرَّجـل تسلُّطـاً فعليـاً . ابتـداء من شؤون النَّهار ، وانتهاء بشجون اللَّيل .

بل إنَّ القاضية السُّويديَّة تعتقد أنَّ للمرأة الشَّرقيَّة عالمها الحالم الخـاص ، ومن هنا ينبثق تعريف « الحرّية » عند القـاضيـة السُّويـديَّـة الَّتي قضت زهرة عمرهـا تعمـل في ميـادين التربيـة والتَّعليم في بـلادهـا ، ثم انتقلت إلى منــاصب القضــاء أخيراً . فالحرِّية عندهـا هي أن يكون للإنسـان عـالمـه الخـاص المستقل ، بعكس المرأة السُّويديَّة الَّتي ليس لها عالم لا يشـاركهـا فيـه الرَّجل ، وبعبـارة أُخرى فـإنَّ المرأة الغربيَّة ـ والسكنديناڤيَّـة بوجـه خـاص ـ (**قـد داخت سبع دوخـات**) لكي تنال حريتها في المساواة بـالرَّجل لتكشف بعـد أن وصلت إلى ذروة تلـك الحرِّيـة أنَّها حرِّية لا ترتد حتَّى عن حافة حرِّية الجنس ، هي حرِّية وهميـة لأنَّهـا لم تمنح المرأة في الحقيقـة المسـاواة بـالرَّجـل إلاَّ بعـد أن جرَّدتهـا من صفـاتهـا الأُنثـويَّـة ، وحقوقها الأُنثويَّـة ، وحريتهـا الأنثويَّـة ، لتجعل منهـا كائنـاً أَقرب إلى الرَّجل . **إنَّها حرية ساكن الجَنَّـة الَّـذي سعى إلى النزول إلى الأَرض ، أو حريـة الطـاووس الَّـذي سعى إلى أن يكون غرابـاً : « وبـاختصـار ، هي حرّيـة المرأة في أن تكون رجلاً » .**

وتضيف القاضية السُّويديَّة بريجيدا قائلة : إنَّ حرِّية المرأة العربيَّـة تعـايش حرِّية الرَّجل دون أن تمسَّه ، فكل منهما حرٌ في ميدانه وبطريقتـه الخـاصَّـة ، أمَّـا المرأة الغربيَّة المنعمة ـ والسُّويديَّة بـالـذات ـ فـإنَّهـا تمـارس حرِّيـة تنقص حرِّيـة الرَّجل وتخنقها وتزاحمها .

وتعلن « بريجيدا » أنّ الحركات النِّسائية في السُّويد تميل إلى أن تجعل من عام ١٩٧٥ م ، العام العالمي للمرأة ، عاماً لتحرير الرَّجل السويدي ، وترى المرأة السُّويديَّة أنَّها قد انساقت وراء حرِّيتها لدرجة أنَّها حرمت الرَّجل من مسرَّاته الَّتي تنعكس مباهجها على متعة المرأة نفسها ، وعلى أُنوثتها ، وعلى كيانها ، وعلى سعادتها فالرَّجل السُّويدي قد حرم نهائياً من (سعادة) مسؤولية رعاية الأُسرة والقوامة عليها ، وحمل أعباء البيت ، والاشتراك في الإشراف على تربية الأَولاد ، لأَنَّ المرأة لاتكتفي فقط بأن تشاركه هذه المسؤولية ، بل إنَّها أَحياناً تتفوَّق عليه وتغتال مسؤوليته بأمر القانون ، فقد عُدِّل أخيراً قانون الطلاق السُّويدي بحيث جعل رعاية الأَولاد حقّاً أُوتوماتيكياً مكفولاً للأُمِّ ، حتى لو كانت هي الَّتي طلبت الطَّلاق . كما أَباح القانون الحرِّية الجنسيَّة للمرأة إلى أَقصى حدٍّ ، لدرجة جعلت الرَّجل هو الفريسة ، والمرأة هي الصَّياد .

والنَّتيجة ، على مستوى الأُمّة ، مذهلة حقاً ..

ففي تقرير رسمي خطير لوزارة الشُّؤون الاجتماعية السُّويديَّة تعلن الحكومة أن ٢٥ في المئة من سكان السُّويد مصابون بأَمراض عصبيَّة ونفسيَّة ، وأَنَّ ٣٠ في المئة من مجموع المصروفات الطِّبية في السُّويد تنفق على علاج الأَمراض العصبيَّة والنفسية . وأَنَّ ٤٠ في المئة من مجموع الأَشخاص الَّذين يحالون إلى التقاعد - قبل سنِّ المعاش - بسبب العجز عن العمل تماماً هم من المرضى المصابين عقلياً .

وتسفر ظاهرة انتشار الأَمراض العصبيَّة عن نفسها على هيئة ارتفاع مذهل في نسبة حوادث الانتحار ، ففي الفترة مابين سنتي ١٩٥١ م و١٩٦٨ م تضاعفت حالات انتحار النِّساء السُّويديات ، وخصوصاً النِّساء اللَّواتي تتراوح أعمارهن بين ٢٥ و٢٩ سنة ، إذ زادت من ٦,٢ حالات من كل مئة ألف امرأة ، إلى ١٢,١ حالة ، في حين لم تسجل حالات انتحار الرجال أيَّ ارتفاع .

وتقول بريجيدا معلّقة : إذن من المستحيل تجاهل الرَّبط بين هذه النسبة المتضاعفة بهذا الشكل الغريب واضطراد الحرّية الّتي تمارسها المرأة السُّويدية في الحقبة الزمنية ذاتها .. أو على حد تعبير تقرير وزارة الشُّؤون السُّويديّة : هناك خطأ ما في العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فدولة الرَّفاهية لا تزيد من سعادة الفرد ، كما هو متوقع ، وإنما تضعف شخصيته وإحساسه بالمسؤولية ، مما ينتج عنه تحلُّل هذه الشَّخصيّة .

وبعد أن تلفت القاضية السُّويديّة انتباهنا إلى أنَّ صاحبة التَّقرير الرَّسمي في وزارة الشُّؤون الاجتماعية السويدية امرأة ، تصحبنا في جولة بين حقائق مجتمع الرَّفاهية السُّويدي ، تربط خلالها ـ وهذا مهم ـ بين اضطراد العلاقة بين حرِّية المرأة السُّويديَّة ، ورفاهية مجتمعها اضطراداً متزايداً من جهة ، والاضطراد العكسي بين تلك الحرِّية وبناء شخصيَّة الرَّجل السُّويدي ، الأمر الَّذي يجعل تحرير الرَّجل هناك من عواقب حرِّية المرأة أمراً لازماً وحيوياً لشعور المرأة السُّويديَّة بأُنوثتها وكيانها .

ومن مشكلات السُّويد والَّتي نجمت عن حريَّة المرأة ، مشكلة المسنِّين . فالمسنُّون في السُّويد أتعس خلق الله رغم الرِّعاية الأُسطوريَّة الَّتي يضفيها عليهم المجتمع ، ابتداء من المعاشات السَّخيَّة الَّتي تصل إلى ما يعادل أربعة آلاف وخمس مئة ليرة لبنانية في السَّنة لكل من بلغ سنَّ السِّتين ، ثم المساكن الفخمة المفروشة التي ينال فيها كل مسنٍّ ـ رجلاً كان أو امرأة ـ جناحاً مستقلاً يدفع فيه ١٠ في المئة من إيراده (أيّاً كان هذا الإيراد ، أي أن المسكن الواحد يتفاوت إيجاره بتفاوت إيرادات من يسكنونه) ، ثم الرِّعاية الصِّحيّة والاجتماعيَّة الكاملة .

رغم كلّ هذه التَّسهيلات الخرافيَّة ، فإن الإحساس المحض بالوحدة والاغتراب يضفي نوعاً من القتامة والجهامة على المجتمع السُّويدي ، لارتفاع نسبة المسنين فيه ، فالأولاد والبنات حين يكبرون يفترقون أُوتوماتيكياً عن عائلاتهم ،

وانخفاض نسبة الإنجاب تزيد في قساوة الوحدة الَّتي تكاد تقضي على معنويات الآباء ، وليس للمشاعر العائليَّة في مجتمعاتهم قداسة تشبه قداستها في المجتمعات الشَّرقيَّة ، ومن هنا يمكن تصور الآلام النفسية المفزعة الَّتي يشعر بها المسنُّون في السُّويد .

شيءٌ واحدٌ يخفف من تجهُّم هذه الصُّورة في مستعمرات المسنِّين ، هو قصص الغرام الَّتي تنشب بين العجائز بعد سنِّ السّبعين وأَحياناً سن الثمانين ! ولكن سرعان ما يدب الخلاف ويلجأ الجميع إلى ساحات الطَّلاق ، الأَمر الَّذي يجعل حياة هؤلاء النَّاس خليطاً من المأساة والملهاة !!.

هذا ماقالته القاضية السُّويديَّة « بريجيدا » بمناسبة عام المرأة ١٩٧٥ م . علماً أَنَّ المعاهد العلميَّة في السُّويد ، أَجرت استفسارات عن « الحبِّ الحر » ، وتبين أَنَّ ٨٠ في المئة من نساء السُّويد مارسن علاقات جنسيَّة كاملة قبل الزواج ، و٢٠ في المئة بقين بلا زواج .

وأَدَّت « حرِّية الحب » بطبيعة الحال إلى الزَّواج المتأخر ، وإلى الخطبة الطَّويلة الأَجل ، مع زيادة عدد الأَطفال غير الشَّرعيين . والنَّتيجة الطبيعيَّة بعد ذلك أَن يزيد تفكك الأُسرة .

وإنَّ نسبة الطَّلاق في السُّويد هي أكبر نسبة في العالم طبقاً للإحصاءات الَّتي أَعدتها وزارة الشُّؤون الاجتماعية بالسُّويد ، وسبب ذلك أَنَّ ٣٠ في المئة من الزِّيجات تتمُّ اضطراراً تحت ضغط الظُّروف بعد أَن تحمل الفتاة ، والزَّواج بحكم الضَّرورة لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج العادي ، ويشجع على الطَّلاق أَن القانون السُّويدي لا يضع أَيَّة عقبة أَمام الطَّلاق إذا قرَّر الزَّوجان أَنَّهما يريدان الطَّلاق فالأَمر سهل جداً ، وإذا طلب أَحدهما الطَّلاق ، فإنَّ أَيَّ سبب بسيط يقدّمه يمكن أَن يتمَّ به الطَّلاق .

وهـذا التخبُّط في حيـاة الأُسرة والزَّوجين يسود النرويج والـدنمرك أيضـاً ، والحال في أمريكة لاتقل عن هذه الحال ، ويكفينـا القول إنَّ لجنـة الأربعـة عشر الأمريكية ، الَّتي تعنى بمراقبة حالـة البلاد الخلقيَّـة قـد أكـدت أن ٩٠ في المئـة من الشَّعب الأمريكي مصابون بالأمراض السِّريَّة الفتَّاكة وذلـك قبل وجود مضـادات الحيويات كالبنسلين والاستريبتومايسين . والحالة ذاتها في الدُّول الماديَّة الشَّرقيَّة ، حيث ستـار حـديـدي من التكتُّم لبؤس المرأة ولتفكـك الأُسرة ، خصوصـاً والمرأة هناك تعمل الأعمال المضنية ، مِمَّا أفقدها أنوثتها وجعلها أشبه برجل[١] .

فهذه هي الحريَّة ، وهاهي نتائجها ، هذه هي المشكلات جليَّـة واضحـة في أكثر دول العالم تقدُّماً وعلماً ، وهذه هي الدِّراسات تنطق بالألم والحسرة وبالنتائج المحزنة .

وبعد هذه الدِّراسات كلِّها ، الَّتي يمكن الاستفادة من نتائجها لتحاشي الانهيار الَّذي وقعوا فيه ، وعلى الرغم من صيحاتهم أنَّ المرأة في بلادنا أميرة في قصر سعيد ، يطـالعنـا بعض أصحـاب الأفكار المـاديَّـة بين حين وآخر بتهجم مصطنـع على الإسلام ، مطالبين بتحرر المرأة ، دون تحديد لمفهوم الحرِّيَّة ، مع أنَّـه يستشف من كتـابـاتهم في كثير من الأحيـان ، أنَّهم يريـدون انفلات المرأة من حشمتهـا ، ومن النُّظم الاجتماعيَّة الَّتي ترسم خطوطـاً واضحـة لتنظيم العلاقـة بين الـذكر والأنثى ، وهـذه الخطوط الواضحـة لاترضيهم ، لأنهـا لاترضي غرائزهم الجـامحة ، فطـالبوا بالفوضويَّة ، ولكن تحت كلمة عذبة في المسامع ، إنَّها « الحُرِّيَّة » .

والأفكار الَّتي نسمعهـا اليوم من نسـاء أيضـاً ، هنَّ حتماً دون سنِّ النُّضج ، أو من المعقَّدات نفسياً ، وبعد الأربعين من العمر نسمع منهن مالم نكن نسمع من قبل .

---

(١) تجد هذه المعلومات موسعة في ظلال القرآن ، الجزء الثَّاني ، صفحة : ٣٣٠ ومابعدها . باستثناء المعلومات الحديثة فهي من « الأُسبوع العربي » العدد ٨٢٠ ، تاريخ ١٩٧٥/٢/٢٤ م .

وقبل البدء بتفنيد آخر الاتهامات نقول : يظهر جلياً أنَّ الَّذين هاجموا تنظيم الإسلام للأُسرة ، مثقفون من طرف واحد ، لم يطلعوا على الإسلام ، وهذا لانشكُّ فيه ، وإن اطلعوا فاطلاع عابر سريع لأَخذ نقاط مبتورة ترضي ما يرغبون .

فالكتب الَّتي كتبت عن المرأة في حدود النُّظم الإسلامية كثيرة ، ولو اطلعوا على بعضها لما قالوا ماقالوه ، ومنها كتاب « نحو مجتمع إسلامي » وفصل المرأة وعلاقات الجنسين في كتاب الإسلام ومشكلات الحضارة ، وكتاب « الحجاب » ، وكتاب « تفسير سورة النُّور » للأستاذ المودودي ، وكتاب « الأُسرة والمجتمع » وكتاب : « حقوق الإنسان » للدكتور علي عبد الواحد وافي ، وكتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب ... ولقد اعتمد عليها المرحوم سيد قطب في تفسير سورة النِّساء في ظلاله ، فجاء التفسير عذباً رائعاً .

ويمكن القول :

« مايحسب على الإسلام هو الذي ينْشأ وفق أَحكام الإسلام وأُصوله وتصوُّراته وشرعته وموازينه ، أَمَّا ما يقع في المجتمع الَّذي ينتسب إلى الإسلام خارجاً على أُصوله وموازينه ، فلا يجوز أن يحسب منه ، لأَنَّه انحراف عنه »[1] .

من آخر الاتهامات التي وجهت للإسلام ، الَّذي لا يطيقون عليه صبراً ، وهم يصبرون على كل المذاهب والأَديان ، لا يطيقون عليه صبراً لأَنَّه نظام اجتماعي وحياتي متكامل ، له منهجه وتصوُّراته وحلوله ..

من تلك الاتهامات قول إحداهن : « المدرسة التقليديَّة تعالج مسأَلة المرأة بسلسلة من أَحكام الحلال والحرام تتسع دائرتها وتضيق حسب درجات التطور الاقتصادي والاجتماعي ، لاحسب مبادئ ثابتة » .

---

(١) الظِّلال ، جـ : ٢ ، ص : ٢٥١ و٢٥٢

هذه وجهة نظر لا دليل عليها ، وكأنَّها تقول إنَّ اللُّغة العربية تقرأ وتكتب ضمن أحرف ليست ثابتة ، أين الدَّليل ؟

الإسلام منهج ثابت في أُصوله ومقوماته القرآنية ثابتة لم يتغير منها شيء حتَّى رسم كلماتها ، والسُّنَّة النَّبويَّة جليَّة واضحة ثابتة إلى يومنا هذا . وإن كانت هناك بعض الأقوال لعدد من العلماء ، فليست الحجَّة على الإسلام ، لأنَّ العصمة في التَّشريع والتَّفسير للأنبياء وحدهم .

لو قلنا إنَّ ماركسيّاً أكل جهد عامل ، لقالوا فوراً : ليس هذا من الماركسيَّة ، ولا يمكن قياس هذا الإنسان على المبدأ . أما في الإسلام ، فقول لعَالِم أو فَقيه أو باحث مجتهد ، إنْ خالف أمر الله ورسوله صراحةً ، يتناسى الحاقدون الأَصل ، ويغيرون وحدة القياس ، ويتمسَّكون بما قيل ، ويصبح عندهم حجَّة قاطعة .

إن قال ماركسيّ : إن المصالح بين العمال وأرباب العمل ليست متضاربة ، اتهموه بالرِّدَّة ، وهذا مافعلوه مع روجيه غارودي[1] المفكر الشُّيوعي ، عضو المكتب السِّياسي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، حيث اتهموه أنه

---

(١) يحمل روجيه غارودي الدكتوراه في الآداب ، ومرتبة الأُستاذية في الفلسفة ، ودرَّس غارودي الفلسفة في الجامعات الفرنسية والجزائرية ، وانتخب في أوائل الأربعينات إلى الجمعية الوطنية الفرنسيَّة ، وتكرَّر انتخابه أكثر من مرَّة ، وفي عام ١٩٥٦ اختير نائباً لرئيس الجمعية الوطنية الفرنسية ، وفي عام ١٩٥٩ عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي ، وعضواً في المكتب السياسي الشيوعي الفرنسي حتى بداية السبعينات ، وكان مرشح الحزب الشيوعي لرئاسة الجمهورية الفرنسية ، وفي ١١ رمضان ١٤٠٢ هـ الموافق ٢ تموز (يوليو) ١٩٨٢ زار جنيف بدعوة من المؤسسة الثقافية الإسلامية ، حيث أعلن إسلامه بوثيقة رسمية ، واتخذ « رجا » اسماً جديداً بدلاً من « روجيه » ، وهذا يثبت أن الإسلام فوق كل المبادئ والفلسفات الوضعية ، وأنه بحاجة إلى عقول كبيرة عالية تتفهمه وتتبناه .

بات يمينيّاً وتحريفيّاً وانقساميّاً[١] ، مع أنّه دافع عن الفكر الماركسي طوال ست وثلاثين سنة ، لما نادى باشتراكيّة وطنيّة في كلّ بلد بحسب ظروفه التّاريخيّة والاجتماعيّة ، وليست اشتراكيّة تكون نسخة كربونيّة عن اشتراكية روسية ، نموذج للاشتراكية يتّفق مع بنية كلّ شعب وتقاليده التّاريخيّة ومستواه ، وممّا قال هذا المفكّر : « العسف في الاتحاد السّوفييتي نفسه ليس حيال الكُتّاب فحسب ، بل حيال أيّ امرئ يضع النظام موضع التّساؤل ، ولسوف نرى أنّ الأُمور تجري جميعاً من فنلندة حتّى إسبانية واليونان كما لو أنّ الخطر الرّئيسي بالنسبة إلى القادة السّوفييت هو انتصار اشتراكية إنسانيّة الملامح يخشى من عدواها كما كانت الحال في براغ بالأمس »[٢] .

وقال : « إنّ الاشتراكية الّتي نريد بناءَها في فرنسة ، ليست الاشتراكيّة الّتي تفرضونها على تشيكوسلوفاكية »[٣] .

إن قال ماركسيّ ماقرأناه في الأَسطر السّابقة ، قالوا : مرتدّ ، تحريفيٌّ ، انقسامي .. وإنْ قال مجتهدٌ بحّاثة أمراً يخالف الإسلام في نصوصه الثّابتة الأُصول والمقومات تمسّكوا به ، ولا يقولون : إنّه يُحْسب عليه وحده ، أو اجتهد وأخطأ ، والمبدأ ينصُّ على غير هذا .

☆ ☆ ☆

وقالت امرأة : « حين نودي بتعليم المرأة كان ذلك بدعة وضلالة ، وحين أصبح تعليم المرأة حقيقة واقعة ، أفتوا بحِلّه ، ثم ذهبوا إلى فرضيته » .

---

(١) قال غارودي : « لم يعد الصّمت ممكناً » وألّف كتاب : « منعطف الاشتراكية الكبير » نشر دار البعث ، ثم كتاب : « الحقيقة كلّها » نشر دار دمشق ، فأُقصي عن المكتب السّياسي وعن اللّجنة المركزية للحزب الشّيوعي الفرنسي ، وأخيراً فصل من الحزب .

(٢) أقوال من كتابه « الحقيقة كلّها » صفحة : ١٠

(٣) منعطف الاشتراكية الكبير ، صفحة : ١٢

ونحن نقول : إنّ الإسلام لا يعترف بسياسة الأمر الواقع مطلقاً ، وهاقد مرَّ عليه أربعة عشر قرناً ، وها هو ذا يدخل قرنه الخامس عشر ، ومبادئه ثابتة ، ولم تأت حقيقة علمية تخالفه ، بل تجد فيه الأمم اليوم حلولاً لمشكلاتها وتعتبره مصدراً من مصادر تشريعاتها في قلب أوربة .

لذلك ، نظَّم الإسلام الحياة على قواعد لم تتبدل والأصل من فم رسول الله ﷺ :

« **العلم فريضة على كل مسلم** » .

« **ليس منّي إلاّ عالم أو متعلم** » .

وفي كتاب الله عز وجل :

﴿ **يَرْفَعِ اللهُ الّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ** ﴾
[المجادلة : ١١]

﴿ **قُل هَلْ يَسْتَوي الّذينَ يَعْلَمُونَ وَالّذينَ لاَيَعْلَمُونَ إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْبَابِ** ﴾ . [الزّمرَ : ٩] .

فالآيات والأحاديث إن لم تحدد ذكراً كان المتعلم أمْ أنثى ، كان الإطلاق واضحاً فيها[1] . ولو صح قولها أن تعليم المرأة كان بدعة وضلالة ، لما وجدنا على مرِّ تاريخنا الإسلامي منذ صدره الأوّل وإلى أن أفتوا اليوم بضغط من سياسة الأمر الواقع بفرضيته ، لما وجدنا مسلمة متعلمة ، وهذا يخالفه الواقع ، والتّاريخ خيرشاهد .

والأمثلة أكثر من أن تُحْصى ..

فمن صدر الإسلام ، كان هناك صحابيات يروين أحاديث النّبيِّ ﷺ ويحفظنها وينقلنها إلى غيرهن من النّاس . وبالرجوع إلى مسند الإمام أحمد :

---

(١) كلمة مسلم ، تشمل المسلمة على تغليب المذكر .

الجزء السَّادس ، صفحة ٤٠٢ إلى صفحة ٤٦٤ نجد نساءً كثيرات[1] قد روين عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث كثيرة ، وعددهن ٧١ امرأة ، ومنهن :

أُمُّ كلثوم بنت عقبة ، ورقة بنت عبد الله ، سلمى بنت حمزة ، خولة بنت حكيم ، خولة بنت عامر ، فاطمة بنت قيس ، أُمُّ حكيم بنت الزبير ، فاطمة بنت أَبي حُبَيْش ، فريعة بنت مالك ، سلمى بنت قيس ، أُمُّ حرام بنت ملحان ، سويدة بنت زمعة ، جويرية بنت الحارث ، أُمُّ العلاء الأنصارية ، أُمُّ جميل بنت المجلل ، أسماء بنت عُمَيْس ، أم عمارة بنت كعب ، أُمُّ الدَّرداء ، ميمونة بنت سعد ، حفصة بنت عمر بن الخطاب ...

وللسَّيِّدة عائشة رضي الله عنها استدراكات على الصحابة . جُمِعت في كتاب : « الإجابة لإيراد مااستدركته عائشة على الصَّحابة » ، تأليف الإمام بدر الدين الزركشي ، تحقيق الأُستاذ سعيد الأفغاني ، نشر المكتب الإسلامي ، فعائشة قمة في العلم والتعليم ، بل في النقد والتعديل والتصحيح .

وفي « الأَعلام » للأُستاذ خير الدين الزركلي ، لانقول عشرات ، بل نقول مئات ومئات من العالمات المسلمات .

وفي « سير أَعلام النبلاء » للحافظ الذهبي مئات العالمات الفقيهات أيضاً .

وفي نهاية « تاريخ بغداد » للحافظ أَبي بكر أَحمد بن علي الخطيب البغدادي ، عشرات النِّسوة الشَّهيرات المتعلمات ، اللَّواتي كان لهن أثرهن في المجتمع الإسلامي .

وفي « أَعلام النساء في عالمي العرب والإسلام » للأُستاذ عمر رضا كحالة مئات ومئات من المسلمات المتعلمات المحدثات ، لو أَردنا ذكر أَسمائهن جميعاً ،

(١) طبعة صادر والمكتب الإسلامي ، « بيروت » ، راجع في المسند ، ص : ١٩ مسند السيدة عائشة ، ومن ص ٢٨٢ إلى ٣٨٢ راويات ، ثم من ص ٤٠٢ ـ ٤٦٤ تمتهن .

لكتبنا مجلداً أو مجلدين . وإنّ كتب التّراجم زاخرة بمئات المسلمات العالمات المربّيات اللّواتي تربى على أيديهن ، ونهل من علمهن علماءُ أجلاء كانت لهم قدم راسخة في العلم والمعرفة والأدب . والجهل بما تحويه مصادرنا العربية مما أشرنا إليه سابقاً ، يدل على ادعاء وتعالم ، ممن يفنّد ويزعم أن الإسلام حرم المرأة حقوقها أو حريتها ..

وهذا مثال واحد منهن :

« **ست الوزراء بنت عمر بن أسعد التّنوخيّة الدّمشقيّة** » : « محدّثة ذات أخلاق فاضلة ، ولدت سنة ٦٢٤ هـ وسمعت من والدها ... ، ومن أبي عبد الله الحسين الزّبيدي مسند الشّافعي ، وصحيح البخاري ، وحدّثت بدمشق ومصر ، وهي آخر من حدّث بالمسند بالسّماع ، وحدث عنها أحمد بن علي بن أبي بكر الصّالحي والذّهبي وابن أبي المجد ، وسمع عليها فخر بن محمّد بن حميد محاسن النّيربي صحيح البخاري ، وقرأ عليها علي بن يعقوب الشّافعي الفقيه مسند الشّافعي لما قدمت القاهرة .

وحدّث عنها شمس الدّين محمود بن خليفة بن خلف المنبجي ، وروى عنها شمس الدّين محمد بن علي الخشّاب ، وسمع وقرأ عليها محّمد الواني ثلاثيات صحيح البخاري وكتاب التّوحيد من صحيح البخاري وجميع صحيح البخاري ، والجزء الخامس من فوائد عبد الرحمن بن عمر بن نصر الدّمشقي بسماعها من أبيها ، وجزءاً فيه اثنا عشر حديثاً من مسند الشّافعي بسماعها من الحسين الزبيدي ... وخرج عنها كتاب بغية الملتمس في سباعيات مالك بن أنس تخريج صلاح الدّين العلائي . وتوفيت في شعبان فجأة سنة ٧١٦ هـ »[1] .

---

(١) أعلام النساء ، صفحة ١٧٣ من الجزء الثاني ، ولاحظ عدد العلماء والمحدّثين الذين تتلمذوا عليها ، وأخذوا منها .

بعد هذا كله ، كيف تقول « مثقفة تدعي المنهج العلمي » : إنَّ تعليم المرأة المسلمة كان بدعة وضلالة ؟ ولو رجعت إلى مصدر واحد فقط مما ذكرنا ، لما قالت ماقالته ، وهي تظنُّه حقيقة تدين به الإسلام ، ولا ندري .. لعلها لم تسمع بها ، وإلاَّ فبماذا نفسر عدم معرفتها آلاف النِّساء المسلمات العالمات ؟!!

☆ ☆ ☆

ثم قالت : « البهي وأمثاله ، بمنطقهم في تخصيص المرأة ببعض العلوم والأعمال حفاظاً على أنوثتها ، أبعد ما يكونون عن الصِّدق والواقعيَّة ، وإنَّ المرءَ يتساءَل : أيُّها أخطر على أُنوثة المرأة : الاشتغال بالعلوم والصَّيدلة والكيمياء ، أم الاشتغال بحرث الأَرض ونقل الطَّمي والسباخ على رأسها ؟ » .

البهي وأمثاله إذا خصصوا المرأة ببعض العلوم ، لم يقولوا بأَنْ تعمل المرأة بنقل الطَّمي والسباخ ، وإذا هي عملت مع زوجها مشاركة منها انطلاقاً من مبدأ المساواة الَّتي ينادون بها ، فلا شيء في ذلك .

هذا .. وأثبتت الأُنثى المسلمة في المجتمع الحالي نجاحاً باشتغالها بالعلوم ، وبالصَّيدلة ، وبالكيمياء ، والطِّبابة ، وبتربية الجيل في مدارس افتتحتها .. يتوج ذلك جوٌّ من الطُّهر والعفَّة ، والعمل بلا ميوعة أو اختلاط يسوِّغ الأذى ويفسد المجتمع .

☆ ☆ ☆

وقالت : « القرآن أعلن بنصوص صريحة تفضيل الرِّجال على النِّساء » ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء ... ﴾ [النساء : ٣٤] ، وامتدَّت الأَفضلية عند المفسرين إلى الثَّواب عند الله ، فقرَّروا نقصان ثواب النِّساء في العبادات لفوات مدَّة الحيض » .

إذا كانت المؤسَّسات الأُخرى الأَقل شأناً وخطراً من الأُسرة ، والأَرخص سعراً ، كالمؤسسات الماليَّة والصّناعيّة والتّجاريّة وما إليها .. لا يوكل أمرها عادةً إلاَّ لأكفأ المرشَّحين لها ، ممن تخصَّصوا في هذا الفرع علميّاً ، ودُرِّبوا عليه عمليّاً ، فوق ما وُهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة .

المرأة زُوِّدت ـ فيما زودت به من الخصائص ـ بالرِّقة والعطف ، وسرعة الانفعال ، والاستجابة العاجلة لمطالب الطُّفولة بغير وعي ولا سابق تفكير ، هذه الخصائص ليست سطحية ، بل هي غائرة في التَّكوين العضوي والعصبي والعقلي والنَّفسي للمرأة ، بل يقول كبار العلماء المختَّصين : إنَّها غائرة في تكوين كُلِّ خلية ، لأنّها عميقة في تكوين الخلية الأُولى ، الَّتي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأَساسيَّة .

وكذلك زُوِّد الرَّجل ـ فيما زود به من الخصائص ـ بالخشونة والصَّلابة ، وبطرد الانفعال والاستجابة ، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة ، لأنَّ وظائفه كلَّها تحتاج إلى قدر من التَّروي قبل الإقدام وإعمال الفكر والبطء في الاستجابة بوجه عام ، وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها[١] .

فالقوامة لها أَسبابها من التكوين والاستعداد ، ولها أَسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ، ولها أَسبابها من العدالة في التَّوزيع من ناحية ، وتكليف كل شطر ، في هذا التَّوزيع ، بالجانب الميسر له ، والَّذي هو مُعَانٌ عليه من الفطرة .

ومن دلائل الفطرة الطَّبيعيَّة لقوامة الرَّجل ، شعور المرأة بالحرمان والنقص

---

(١) راجع لتفصيل هذه الأفكار والتوسع بها تفسير سورة النِّساء في الظِّلال ، الجزء الثَّاني ، ص : ٣٠٠ وما بعدها .

والقلق وقلة السَّعادة ، عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة ، وتنقصه صفاتها اللاَّزمة ، فيوكل إليها القوامة ، وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظَّلام ، وقد جاء في تقرير القاضية السُّويديَّة (بريجيدا) النَّص الحرفي : « **فالرَّجل السُّويدي قد حُرِمَ نهائياً من سعادة مسؤوليَّة رعاية الأُسرة والقوامة عليها ، وحمل أعباء البيت ...** » والنتيجة ـ كما اكتشفت بريجيدا ـ على مستوى الأُمَّة حقائق مذهلة حقّاً ..

وإنَّ الأَطفال الذين ينشؤون في مؤسسة عائليَّة القوامة فيها ليست للأب ، إمَّا لأنَّه ضعيف الشَّخصيَّة بحيث تبرز عليه شخصيَّة الأُمِّ وتسيطر ، وإمَّا لأنَّه مفقود لوفاته ، أو لعدم وجود أَبٍ شرعيٍّ ، قلما ينشؤون أَسوياء ، وقلَّ أَلاَّ ينحرفوا إلى شذوذ ما في تكوينهم العصبي والنَّفسي ، وفي سلوكهم العملي والخلقي .

فالقوامة للرجل وظيفة داخل كيان الأُسرة ، لإدارة هذه المؤسَّسة الخطيرة وصيانتها وحمايتها ، ووجود القَيِّم في مؤسَّسة ما ، لا يلغي وجود وحقوق الشُّركاء فيها ، والعاملين في وظائفها ، فقد حدَّد الإسلام صفة قوامة الرَّجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله .

هذا .. ولقد منح الإسلام المرأة الحقَّ في اختيار زوجها ، وبهذا فهي تختار القَيِّم عليها ، ولها كل الحق أَن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرَّشيدة . والإسلام بذلك أَعفى المرأَة وأَراحها من الأَعباء الماليَّة ، فحقوق الأَبناء والزَّوجة جعلها في ذمَّة الرَّجل ، وفي هذا قدر كبير من التَّكريم لها ، برفع المسؤولية عن كاهلها[1] !

---

(١) جاء في اللِّسان « قوم » : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣٤] ، الرِّجال مُتكفِّلون بأُمور النِّساء مَعْنيُّون بشؤونهن .

ونستنتج مما سبق حكمة الإسلام ، فنقول : القوامة : تنظيم لمؤسَّسة الأسرة ، وضبط دقيق لأمورها ، وهي توزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات ، بجوٍّ من الإيمان والأُلفة والمحبَّة والإكرام ، فالقوامة مسؤولية على عاتق الرَّجل « وكل راع مسؤول ـ أمام الله ـ عن رعيَّته » .

أما القول بنقصان ثواب النِّساء في العبادات ، فهذا مرفوض قطعاً ومدحوض بنص الآية الكريمة : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** ﴾ ، [آل عمران : ١٩٥] .

وأقرَّ الفقهاء المساواة في حقوق الأجر والثَّواب عند الله ، كما أقروا لها حقوق الدُّنيا في التَّملك والإرث ، وفي الاستقلال بشخصيتها المدنيَّة .

☆ ☆ ☆

وقالت المهاجِمَة : « حرِّية اختيار الزوج في الإسلام زائفة » واختلفت المذاهب حول تزويج المرأة نفسها .

ونبدأ بالرَّد من الجملة الأخيرة ، إن اختلفت المذاهب حول تزويج المرأة نفسها ، فمنها من قال بعدم الأحقِّيَّة ، ومنها من قال بالأحقِّيَّة ، فلتأخذ هي بمن سمح لها بتزويج نفسها أمام القاضي بعد بلوغها سن الرُّشد ، إن رفض وليها تزويجها ووقع بما نهى الله عنه ، وهو « الإعضال »[1] .

قال الأحناف : وينعقد نكاح العاقلة البالغة برضاها إن لم يعقد عليها ولي ،

---

(١) وفي المذهب الشَّافعي كما عند الأحناف . إذا ثبت إعضال الولي ـ أي رفضه تزويجها لكفء تقدم إليها ـ يحق للقاضي أن يزوجها دون إذن وليها . ورأي الولي في الإسلام هدفه إيجاد الكفء للابنة : لياقةً ، وإمكانات ، وكسباً ، وكفايةً ، وسمعةً ، وخلقاً .. ـ لأن اسم الزوج سيقترن باسم العائلة ، فقد تحب ابنته ماجناً ، قليل المروءة ، لاعمل له ولا كسب ، هنا يرفض ، لأن ابنته حكَّمت العاطفة ، وهي عابرة ، ونزوة تنتهي ، وهو يحكم العقل لفلذة كبده ، بما يناسب سعادتها . « راجع فتح الباري باب الولي والنِّكاح » .

بكراً كانت أو ثيّباً ، وهذا عند أبي حنيفة وأبي يوسف ، ووجه هذا الجواز أنّها تصرَّفت في خالص حقّها وهي من أهله ، لكونها عاقلة مميِّزة ، ولهذا كان لها التّصرف في المال ، ولها اختيار الزّوج .

وقالوا أيضاً : لا يجوز للولي إجبار البكر البالغة على النّكاح ، ووجه عدم الجواز أنّها عاقلة .. فلا يكون للغير عليها ولاية الإجبار .

وإذا استأذنها الولي فسكتت أو ضحكت فهو إذن وقبول ، لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : « البكر تُسْتَأمر في نفسها ، فإن سكتت فقد رضيت » ، والضَّحك أدل على الرِّضا من السكوت ، بخلاف ما إذا بكت ، لأنّه دليل السخط والكراهية .

ولو استأمرها غير الولي أو ولي غيره أولى منه ، لم يكن رضا حتى تتكلَّم به ، لأنَّ هذا السكوت لقلة الالتفات إلى كلامه ، فلم يقع دلالة على الرضا .

وقالوا أيضاً : يذكر لها في الاستئمار اسم الزوج « على وجه تقع به المعرفة »[1] . فلها الحق ، كل الحق ، بالقبول أو الرَّفض ، وهذا اختيار بكل ما في الكلمة من معنى ، يحق لها الرَّفض ثم الرَّفض يتلوه الرَّفض إلى أن تجد ما يناسبها فتقبل به زوجاً لها ، وشريكاً لعمرها .

عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا تنكح الأيم حتَّى تُستأمر ، ولا البكر حتَّى تُستأذن ، قالوا : يا رسول الله وكيف إذنها ؟ قال : أنْ تسكت » ، [رواه الجماعة] .

وعن ابن عباس أنَّ جارية بكراً أتت رسول الله ﷺ ، فذكرت أنَّ أباها زوجها وهي كارهة ، فخيَّرها النَّبيُّ ﷺ ، [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارقطني] .

---

(١) كتاب « الهداية » .

وقال الإمام الشَّوكاني في نيلِ الأَوطار : « إنَّ البكر البالغة إذا زُوِّجت بغير إذنها لم يصح العقد ، وإليه ذهب الأَوزاعي والثَّوري والأَحناف ، وحكاه التِّرمذي عن أكثر أهل العلم » .

وقال أيضاً : « الظاهر أن استئذان الثَّيب والبكر شرط صحة العقد ، لرده ﷺ نكاح خنساء بنت خدام وهو : عن خنساء بنت خدام الأَنصاريَّة أن أباها زوجها وهي ثيِّب ، فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها » .

وإنَّ اختلاف الفقهاء في تزويج المرأة ليس عيباً أو نقصاً ، إنَّ النَّاس يختلفون في واقعهم وبيئتهم ، فإن تعدَّدت الأَقوال في موضوع ، فلكلٍ أن يأخذ بحسبه ، وهذا يُسْرٌ للنَّاس .

☆ ☆ ☆

وأخيراً .. كرَّرت الكاتبة الَّتي لم تطلع على الإسلام إطلاعها على مذهبها المادي الَّذي تدعو إليه ، كرَّرت عبارات : الإطار التقليدي للإيدلوجيا الإسلامية ، والتَّقاليد العتيقة ، الوأد الاجتماعي للمرأة ، وحقوق المرأة حبر على ورق ...

ونحن نقول : إنْ كانت التقاليد لاتمت إلى العقل والمنطق والعلم والدِّين بصلة ، فنحن نقول بتركها ، والابتعاد عنها ، أما إذا كانت تحقِّق سعادة الأُسرة ولو كانت قديمة فنحن أكثر النَّاس تمسُّكاً بها لصلاحها ، فليس كل قديم يُنْبَذ ، وليس كل جديد يُؤْخَذ .

والوأد المادِّي أو الاجتماعي اليوم .. تقرير لبعض المشاهدات السَّطحِيَّة ، وهو واقع لا يرضاه الإسلام ، وما دعا إليه ، وما يحسب على الإسلام ، هو الَّذي ينشأ وفق أَحكامه وأُطره وبرامجه وموازينه ، والخارج عن هذا ، لا يجوز أن يحسب منه ، لأَنَّه انحراف عنه .

ولو عاشت المرأة ضمن إطار الحقوق المعطاة لها في الإسلام ، لضمنت حريتها الحقيقيَّة ، وسعادتها المنشودة ، وبالتَّالي سعادة الأُسرة الَّتي ترعاها ، وسعادة المجتمع كلِّه ، ولما كانت حبراً على ورق كما توهمت الكاتبة .

إنَّ الانفلات من تنظيم الحياة والأُسرةِ إلى كلمة « حرِّية » ، و « تحرير المرأة » ، انفلات نحو تحقيق رغبات جنسيَّة آنية لا يدري إلاَّ العقلاء نتائجها الاجتماعيَّة السَّيئة ، وقد جعلنا في بداية البحث (أرقى) دول العالم في حريتها الممنوحة للمرأة دليلاً للعقول الموضوعيَّة على أنَّ الحرِّية الممنوحة قد خرَّبت المجتمع وبات يشكو من أمراضه ومشكلاته الَّتي نتجت عن هذه الحرِّية !!

إنَّ المرأة المسلمة مكرَّمة ، في ظل الإسلام : « فالْجَنَّة تحت أقدام الأُمهات » ، وانتقل النَّبيُّ الكريم إلى الرَّفيق الأعلى وهو يوصي بها وبإكرامها ، وهي ليست هدفاً لتحقيق الاتصال الجنسي ، إنَّها في عرف الإسلام مهيأة إلى هدف أبعد ، هو الارتباط الدَّائم بأُسرة يتمُّ فيها إعداد الطفل ، الَّذي هو رجل المستقبل ، وتزويده برصيد من التجارب والمعارف والأَخلاق الإنسانية ، تؤهله لبناء مجتمع فاضل ، مرتسمة فيه سبل التَّرقي الدَّائم ، عن طريق الأَجيال الفاضلة المتعاقبة .

وإنَّ هؤلاء المنهزمين أَمام الأَفكار المعادية للإسلام ، هم بحاجة ماسة إلى أن يلتفتوا إلى الإسلام ومدلولاته ، لاأن يكتفوا ببناء أَفكارهم على أُسس من المبادئ المعادية ، هذا إذا كانوا مخلصين حقّاً في دعوتهم إلى سعادة المرأة ، والتَّحليق بالمجتمع إلى منتهى سعادته ، على جناحين : الرَّجل والمرأة .

أَمَّا اكتفاؤهم بترداد ما يسمعون ، واختراع النتائج من خلال المقدِّمات الخاطئة ، فهذا إفك مفترى على أَنفسهم قبل مجتمعهم ، وتحقير للفكر البشري عامة قبل احتقار أفكارهم .

إنَّ كلمة الله ، وَسُنَّة الله الَّتي خلت في عباده هي الأَساس ، وكل نكوص عنها ، أو ارتداد ، يعني فراغاً وضياعاً دونه ضياع مجتمع ، وفي تقرير القاضية السُّويديَّة الباحثة عن السعادة ، ما يثبت ذلك .

إنَّه الإسلام ، به وحده سعادة البشر ، وبتعاليمه كان وسيكون انتصار الحضارة ، واكتمال الأَمن والشُّعور بالاستقرار والهناءة . والعالم اليوم يشعر بالحاجة إلى منقذ مُخَلِّص ، وإنَّه لموجود .. خلَّص الإنسان ـ عندما طُبِّق ـ من جور الإنسان ، وعبادة الإنسان للإنسان ، إلى عبادة رب الإنسان الَّذي أَراد الخير والسَّعادة المطلقة للناس أَجمعين ، ولا عجب .. أَفينكر أَب أَو رب أُسرة سعادة أبنائه !؟ ومما لا شك فيه أن ربَّ النَّاس يحب لهم هذه السعادة ، وقد وضعها لهم بتعاليم سامية ختمها الإسلام ، وقد جربه العالم يوماً ، فهل إلى عودة إليه من سبيل ؟!

خاتمة

مسلم اليوم بين الانتصار والهزيمة

☆ ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

[الأنعام : ١٠٤ و ١٠٥]

إنَّ إسلام المسلم الملتزم بشريعة الله عزَّ وجلَّ ، إسلام منتصر لا ريب ، ولكن قد نجد من المسلمين من يأخذ جانباً ، ويغفل جوانب أُخرى ، إمَّا جهلاً وإمَّا تناسياً ، وتراه ينهزم في مواقف معينة ، حين تتغلَّب أهواؤه وشهواته عليه .

من المسلمين اليوم من يدَّعي التمسُّك بالإسلام ، ويدَّعي الوقوف عند حدوده ، ونراه في الوقت ذاته يخلط عملاً حسناً بآخر سيئ ، وقد ترجح سيئاته على حسناته ، هذا مسلم شيطانه منتصر عليه ، ونفسه الأَمارة بالسُّوء منتصرة ، وأَهواؤه منتصرة ، ومصلحته الشَّخصية ولو خالفت شرع الله هي الراجحة المنتصرة .

فإن قيل : « الإسلام منهزم » ، فهذا يعني إسلام أَمثال من وصفناه من مسلمي اليوم ، الَّذين يحملون من الإسلام اسمه ، وتتحكم بهم مصالحهم الخاصة ،

لضعف إيمانهم ، أو لموته ، إمَّا لضحالة فكرهم الإسلامي ، وإمَّا لعدم تفاعلهم مع إسلامهم ، أمَّا الإسلام الكامل ، فالإسلام منتصر في كل زمان لا محالة .

مسلم إسلامه علم وثقافة واسعة ، إسلامه منتصر ، ومسلم جاهل إسلامه منهزم .

مسلم إسلامه جهاد ، وتحمل ، وصبر ، إسلامه منتصر .

مسلم إسلامه سعي ، ودعوة ، وسهر للإرشاد .. إسلامه منتصر ، ومسلم إسلامه راحة ، « وشاي أخضر » ، وكسل .. إسلامه منهزم .

مسلم إسلامه أخذ بالأسباب ، إسلامه منتصر ، وإسلام التَّواكل منهزم .

مسلم يسعى إلى تصنيع ، وبناء ، ورخاء ، وتضامن ، إسلامه منتصر ، وإسلام الطَّائفيَّة أو الفرقة ، أو إسلام التَّباعد والتَّجافي والتَّعصُّب إسلام منهزم .

مسلم يحقق عملياً بقدر جهده : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] . إسلامه منتصر ، إسلام الانفتاح الَّذي ينتهج ما اصطلح العلماء على تسميته « القاعدة الذهبية » : نلتقي على ما اتَّفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً بما اختلفنا فيه ، إسلامه منتصر ، أما إسلام التَّحزُّب ، إسلام العشائريَّة ، إسلام القبليَّة .. فهو حتماً إسلام منهزم .

إسلام إقفال باب الاجتهاد ، إسلام منهزم في أمور حياتيَّة كثيرة ، وإسلام الاجتهاد واستنباط الحلول الإسلامية المناسبة لما يطرأ من مشكلات ، إسلام منتصر .

مسلم تكمن حقيقة الإيمان فيه ، متفاعل مع الإسلام ، إسلامه منتصر ، ومسلم فاقد اللُّباب ، واجد القشور ، إسلامه منهزم .

مسلم يقدم الرُّدود العاطفية غير المدروسة ، ويرمي من يخالفه بالكفر أو

بالفسق والزَّندقة ، إسلامه منهزم ، كما أنَّ الرُّدود العلمية العقلانية ، المنطقيَّة المدروسة منتصرة .

المسلم الَّذي يرى العاصي المذنب المقصر مريضاً ، فهو له طبيب مداوٍ ، إسلامه منتصر ، والمسلم الَّذي يُنَصِّب نفسه « قاضياً » : هذا عاصٍ ، وذاك فاسق .. إسلامه منهزم .

مسلم فيه جفاء وقسوة مع من يختلف معهم في الرَّأي ، بل وتعصب لرأيه ولو بدت حقيقة تخالفه ، إسلامه منهزم ، كما أَنَّ إسلام التودُّد واللِّين والتَّحبُّب والانصياع للحق والحقيقة إسلام منتصر .

مسلم الحكمة ضالته ، إسلامه منتصر ، ومسلم يحب الباطل وأهله ، إسلامه منهزم .

مسلم أهل لتحمل المسؤوليات إسلامه منتصر ، ومسلم منزوٍ متقوقع إسلامه منهزم .

مسلم تخضع جبهته لله وحده وتعلو عمن سواه ، إسلامه منتصر ، يد من يديه مع الله ، ويده الأُخرى مع المؤمنين العاملين ، إسلامه منتصر ، مسلم يد مع الباطل ، وأُخرى مع الشيطان إسلامه منهزم .

مسلم ورع عن الحرام ومواطن الشُّبه والاتهام ، إسلامه منتصر ، ومسلم يأكل أَموال النَّاس بالباطل إسلامه منهزم .

مسلم يأمن النَّاس بوائقه ، إسلامه منتصر ، ومسلم لا يأمنه النَّاس على درهم إسلامه منهزم .

مسلم إن حَجَّ حَجَّ إلى الله ، يطوف جسده بالبيت ، وتطوف روحه عند ربِّ البيت ، إسلامه منتصر ، مسلم يذهب إلى الحج بأَخلاق حسنة ، ويرجع

بأخلاق أحسن ، يذهب بأخلاق فاضلة ، ويؤوب بأخلاق أفضل ، إسلامه منتصر ، ومسلم لا يعرف من الحج إلاَّ مناظر السَّفر ، ولا يتأثَّر هناك بمشاهد وروحانيَّة الحج ، إسلامه منهزم .

مسلم عاقل حكيم ، إسلامه منتصر ، ومسلم أحمق أهوج لا يقدر عواقب الأُمور ، إسلامه منهزم .

مسلم لا يعرف من التَّربية الرُّوحية إلا الشطحات ، أو الجمود والتَّزمت إسلامه منهزم ، ومسلم يجعل أحكام الشَّريعة ميزاناً لكل فكرة أو تصرف يقدم عليه ، إسلامه منتصر .

مسلم صلاته ميِّتة لاتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، إسلامه منهزم ، ومسلم صلاته معراج إلى الله ، كلُّها خشوع وقرب ، إسلامه منتصر .

مسلم يتقن الدُّعاء ، ولا يتقن العمل إسلامه منهزم ، ومسلم يتقن العمل ثم يتقن الدُّعاء إسلامه منتصر .

مسلم يتعهد طِفْلَهُ تربيةً وخُلُقاً .. إسلامه منتصر في داره ، ومسلم لا يبالي ، بل ولا يدري ماذا يُدَسُّ في ذهن ابنه ، أو ماذا يلقَّن من مبادئ ضالة فاسدة ، إسلامه منهزم ، وأُسرته ضائعة مفكَّكة .

مسلم يحترم حامل العلم ، العالم العامل ، ويقدر جهوده وإنتاجه معنى ومادة ، إسلامه منتصر ، ومسلم يعرف حق الخياط والخبَّاز والحلاق .. ولا يعرف قدر العالم وحقه ، إسلامه منهزم .

مسلم يحقق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ويصلح ذات البين ، إسلامه منتصر ، ومسلم يفرِّق ولا يجمع ، ولا يهمه صفاء القلوب ، وجمع الشَّمل ، ووحدة الكلمة ، إسلامه منهزم .

مسلم يحمل إسلام الاحترام المتبادل ، ولو وجد اختلاف على رأي أو أكثر في طريق الحقّ ، إسلامه منتصر ، ومسلم يحمل إسلام التّنافر والبغضاء ، والغيرة والحسد ، والطعن والشّتيمة والإفك أحياناً ، مسلم إسلامه منهزم .

مسلم يجعل من العروبة ديناً منهزم ، ومن يقر بالإسلام عقيدةً فهو المنتصر ، ومسلم يفتعل معارك هامشية بين العروبة والإسلام ، إسلامه منهزم وعروبته منهزمة ، ومسلم يحب العروبة لأنّ النّبيّ ﷺ عربي ، والقرآن العظيم عربي ، ولسان أهل الجنّة عربي ، إسلامه منتصر .

مسلم إن أخطأ لامته نفسه ، وشعر بلذعة المعصية فتاب ، إسلامه منتصر ، ومسلم يخطئ ثمّ يخطئ .. ولا توبة أو استغفار .. إسلامه منهزم .

مسلم فقير بسبب ترك السّعي والجدّ ، وبسبب حب الكسل والتقاعس ، إسلامه منهزم ، ومسلم غني بسبب السّعي والكسب ، يملك المال ولا يملكه المال ، إسلامه منتصر .

مسلم يسعى لبناء مسجد وتزيينه بالقطع النّفيسة ، مسلم يبني مشفى فقط ، ومسلم يبني مسجداً ويهيّئ له العالم المرشد ، المربّي المزكّي ، مسلم إسلامه مثمر منتصر ، إن أنفق على بناء مسجد مليون ليرة ، ماأحوجه إلى أن ينفق مثل ذلك على رجل ليؤهله روحاً وعلماً ، قلباً وحياةً ، ليحيي به حَيّاً أو بلدةً ، أو أُمّةً .

☆ ☆ ☆

ويطول الحديث .. ويمكن تلخيصه :

المسلم العالم بإسلامه ، نفسه مزكّاة ، روحه زاخرة بالإيمان ، يعرض تصرفاته وحياته على شرع الله ، فهواه مع الشّرع ، يحب ماأحب ، ويبغض ماأبغض ،

وقّافاً عند حدوده ، داعياً إليه .. فهو حجة للإسلام وليس حجة عليه ، هـذا مسلم إسلامه منتصر ، وخلاف ذلك مسلم إسلامه منهزم .

☆ ☆ ☆

هذه هي أهمّ هزائمنـا عبر التـاريخ ، فهل من متعـظ ؟! إنّ التّـاريخ ذاكرة البشريّة ، والحاضر وليد الماضي ، والتّاريخ مدرسة عظيمة للطّبـائع البشريّـة ، فهو عبرة بحق ، لأنّـه مجموعـة اختبـار البشريّـة المسجّل في جميع الأعصر ، إنّـه مدرسة عظيمة للحذر ، ومدرسة عظيمـة للاتبـاع وربـط الأسبـاب بنتـائجهـا ، والنّتائج بالأسباب ، ففيه وجهات نظر إيجابيـة تُتّبع ، وفيـه تجارب سلبيّـة تُجْتَنَب :

مَنْ لَمْ يَـعِ التّـارِيـخَ فِي صَـدْرِهِ ... لَمْ يَـــدْرِ حُلْـوَ الْعَيْشِ مِنْ مُرِّهِ
وَمَنْ وَعَى أَخْبَـارَ مَنْ قَـدْ مَضَى ... أَضَـــافَ أَعْمَـــاراً إلى عُمْرِهِ

قال عزّ وجلّ في نهاية سورة الصّافات [١٧١ ـ ١٨٢]

﴿ وَلَقَـدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَـا لِعِبَـادِنَـا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُـورُونَ ، وَإِنَّ جُنْـدَنَـا لَهُمُ الْغَـالِبُـونَ ، فَتَـوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْهُمْ فَسَـوْفَ يُبْصِرُونَ ، أَفَبِعَذَابِنَـا يَسْتَعْجِلُونَ ، فَإِذَا نَزَلَ بِسَـاحَتِهِمْ فَسَـاءَ صَبَـاحُ الْمُنْـذَرِينَ ، وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْ فَسَـوفَ يُبْصِرُونَ ، سُبْحَـانَ رَبِّـكَ رَبِّ الْعِـزَّةِ عَمَّـا يَصِفُونَ ، وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، والْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

صدق الله العظيم

☆ ☆ ☆

المصادر

١ ـ البداية والنِّهاية ، الحافظ ابن كثير« ط ٢ ، ١٩٧٤ م » ، مكتبة دار المعارف « بيروت » .

٢ ـ أعلام النِّساء في عالمي العرب والإسلام ، عمر رضا كحالة ، المطبعة الهاشميَّة بدمشق .

٣ ـ الأعلام ، خير الدين الزِّركلي ، ط ٣

٤ ـ الإسلام والعرب ، روم لاندو .

٥ ـ تاريخ الرُّسل والملوك ، لابن جرير الطَّبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة : دار المعارف بمصر (١٩٦٦ م) .

٦ ـ تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (ط ٦ ، ١٩٦٢ م) ، مكتبة النَّهضة المصريَّة .

٧ ـ تاريخ بغداد « مدينة السَّلام » للحافظ أبي بكر بن أحمد بن علي الخطيب البغدادي . دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٨ ـ تاريخ الخلفاء ، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ط ٤ ، ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م .

٩ ـ التَّاريخ الأندلسي ، د. عبد الرحمن علي الحجِّي ، ط : ١ ، دار القلم .

١٠ ـ تاريخ الأمم الإسلامية ، الشَّيخ محمَّد الخضري ، ط : ٨ ، سنة : ١٣٨٢ هـ ، المكتبة التجاريَّة الكبرى .

١١ ـ التَّفسير الاشتراكي للتَّاريخ ، د . راشد براوي ، نشر دار النَّهضة العربيَّة ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٨ م .

١٢ ـ حضارة العرب ، د . غوستاف لوبون ، ترجمة زعيتر .
١٣ ـ حياة الصَّحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، طبعة دار الفكر .
١٤ ـ ديوان المبتدأ والخبر .. « تاريخ ابن خلدون » ، طبعة دار البيان المصوَّرة في سبعة أجزاء مع المقدمة .
١٥ ـ الدولة الأُموية ، د . يوسف العش ، طبع عام ١٩٦٥ م .
١٦ ـ عبر وعبرات من دمشق الأندلس ، جواد المرابط ، دار العربية ، بيروت .
١٧ ـ السِّيرة النَّبيويَّة لابن هشام أبي محمَّد عبد الملك بن هشام المعافري ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، عام ١٩٧٥ م .
١٨ ـ السِّيرة الحلبيَّة « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » ، المكتبة التِّجاريَّة الكبرى بمصر ، طبعة عام ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .
١٩ ـ صورٌ من حياة الرَّسول ، أمين دويدار ، طبعة دار المعارف بمصر .
٢٠ ـ فتوح البلدان ، للإمام أبي الحسن البلاذري ، مراجعة رضوان محمَّد رضوان .
٢١ ـ فجر الأندلس ، د . حسين مؤنس ، ط ١ ، عام ١٩٥٩ م ، نشر : الشركة العربيَّة للطباعة والنَّشر .
٢٢ ـ في ظلال القرآن ، للمرحوم سيد قطب .
٢٣ ـ الكامل في التَّاريخ ، لابن الأثير الجزري . إدارة المطبعة المنيريَّة بمصر ، طبعة عام ١٣٤٨ هـ .
٢٤ ـ مروج الذَّهب ومعادن الجوهر ، لأبي الحسن بن الحسين بن علي المسعودي . تحقيق محمَّد محيي الدين عبد الحميد . نشر : دار الفكر ط ٥ ، عام ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
٢٥ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل . نشر دار صادر ، « بيروت » .
٢٦ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التَّاريخ الإسلامي « لزامباور » ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، عام ١٩٥١ م .

٢٧ ـ معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، دار صادر « بيروت » .
٢٨ ـ الملل والنِّحل ، للشهرستاني ، تحقيق محمد سعيد كيلاني ، طبعة البابي الحلبي بمصر عام : ١٩٦١ م .
٢٩ ـ المغرب عبر التَّاريخ ، إبراهيم حركات ، نشر دار السُّلْمى بالدار البيضاء ، ط ١ ، عام ١٩٦٥ م .
٣٠ ـ مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، محمد عبد الله عنان ، ط ٤
٣١ ـ نفح الطِّيب من غصن الأَندلس الرَّطيب ، الشَّيخ أحمد بن محمَّد المقري التِّلمساني ، تحقيق : محمَّد محيي الدين عبد الحميد ، نشر : دار الكتاب العربي « بيروت » .
٣٢ ـ النُّجوم الزاهرة ، جمال الدين أَبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأَتابكي ، طبعة دار الكتاب المصريَّة عام ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م .
٣٣ ـ الوفا بأَحوال المصطفى ، لأَبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، نشر دار الكتب الحديثة ، عام ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م . الطَّبعة الأُولى .

« مع مراجع أُخرى ذكرت في حينها في هوامش الكتاب » .

☆ ☆ ☆

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام	الطبعة السادسة
٢ ـ مَنْ ضَيَّع القرآن ؟	الطبعة الثانية
٣ ـ الإنسان بين العلم والدين	الطبعة الرابعة
٤ ـ هارون الرشيد	الطبعة الخامسة
٥ ـ غريزة ... أم تقدير إلهي ؟	الطبعة الخامسة
٦ ـ آراء يهدمها الإسلام	الطبعة الرابعة
٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية	الطبعة الثالثة
٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي	الطبعة الثالثة
٩ ـ الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »	الطبعة الثالثة
١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان	الطبعة الثالثة
١١ ـ أطلس التاريخ العربي	الطبعة الثالثة
١٢ ـ موضوعية فيليب حتي	الطبعة الأولى
١٣ ـ حضارتنا العربية الإسلامية	تحت الطبع

☆ ☆ ☆

سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام »

١ ـ القادسية	بقيادة سعد بن أبي وقاص .
٢ ـ اليرموك	بقيادة خالد بن الوليد .
٣ ـ نهاوند	بقيادة النعمان بن مقرّن المزني .
٤ ـ ذات الصواري	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
٥ ـ فتح الأندلس	بقيادة طارق بن زياد .
٦ ـ بلاط الشهداء	بقيادة عبد الرحمن الغافقي .
٧ ـ فتح صِقِلّيّة	بقيادة أسد بن الفرات .
٨ ـ الزّلاقة	بقيادة يوسف بن تاشفين .
٩ ـ الأرك	بقيادة المنصور يعقوب الموحدي .
١٠ ـ العقاب	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي .
١١ ـ مصرع غرناطة	« أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر » .

☆ ☆ ☆

سلسلة « غزوات الرسول الأعظم »

١ ـ بدر الكبرى	« يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » .
٢ ـ غزوة أُحد	« عاقبة المخالفة » .
٣ ـ غزوة الخندق	« غزوة الأحزاب » .
٤ ـ صلح الحديبية	« الفتح المبين » .
٥ ـ غزوة خيبر	« الفتح القريب » .
٦ ـ غزوة مؤتة	« فإنما هي إحدى الحُسْنَيَين » .
٧ ـ فتح مكة	« الفتح الأعظم » .
٨ ـ حنين والطائف	« لن نغلب اليوم عن قلة » .
٩ ـ غزوة تبوك	« غزوة العسرة » .
١٠ ـ حروب الرِّدّة	« من قيادة النبي ﷺ إلى إمرة أبي بكر » .

☆ ☆ ☆

الهزيمة أمام المبادئ الدخيلة أقسى وأمرّ من الهزيمة العسكرية. بل هي أبعد أثراً من الهزيمة العسكرية، لأن الهزيمة العسكرية قد تبقي على كيان الأمة. أما الانهزام الفكري فمعناه بدء النهاية للأمة كلها.

الموزعون الحصريّون
دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت - ساقية الجنزير - خلف الكارلتون
ص.ب ١٣٦٠٦٤ هاتف ٨٦٠٧٣٩ تلكس FIKR 44316 LE